كتابُ الأقدار

الطبعة الأولى
1440 هـ / 2019 م

اسم الكتـــاب: كتابُ الأقدار
المـــؤلـــف: د. أحمد السعيد مراد
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 160 صفحة
عدد المـــلازم: 10 ملزمة
مقاس الكتـاب: 14 x 21
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـم الإيـــداع: 00000 / 2018
الترقيم الدولي: 0 - 000 - 278 - 977 - 978 :ISBN

التوزيع والنشر:

دار البشير للثقافة والعلوم

القاهرة - جمهورية مصر العربية
هاتف: 01012355714 - 01152806533
E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

©copyrights

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

دار البشير للثقافة والعلوم

د. أحمد السعيد مراد

كتابُ الأقدار

دار البشير للثقافة والعلوم

HAKAWY

هبّت نسمةٌ خفيفة ناعمة مالتْ لها الكثيرُ من نباتات المروج الخضراء التي تبلغ مُدّ البصر عبر السّهول المتّسعة التي يفوح منها عبيرٌ خاصّ يتنوّع من مكانٍ لآخر على حسب النّبات المزروع به، وكانت الشمسُ ساطعة لاشية فيها تتوسط كبدَ السّماء النقية تمامًا كصفحة بيضاء لم يمسّها قلم من قبل.

ورغم أنّ هذا هو شهر يوليو، ومن المفترض فيه أن يكون الجوّ حارًّا خانقًا، إلّا أنّ جوّ قرطبة السّاحر يختلف عن كلّ مدن العالم، فقد كان أثرُ سطوع الشمس بها مختلفًا يبثّ الدّفء في الأوصال ودغدغة المشاعر بإحساسٍ شجي جميل.

وبين هذه المروج اندفعَ جواد أسود قويّ يحمل فارسَه المتّشح بالسواد كذلك كأنّما أحدهما قد اقتطع من الآخر، وصوتُ أقدامه يصنع تلك القرقعة الخاصّة النّاتجة عن ضرب الأرض بحوافره.

وأخيرًا، لاحت له مدينة قرطبة الأندلسية بعمائرها الزّاهية بألوانها البراقة وتصميماتها المدْهشة والعناية الفائقة بأدقّ التفاصيل فيها.

وصل الفارسُ إلى قصر الخليفة الذي يبرز من أمامه السّواري المستديرة لترتبط بالسّارية المجاورة له بما يشبه القوْس المحني

لأسفل، والذي أصبح فيما بعد من مظاهر العمارة الإسلامية والعربية الأصيلة لأغلب المساجد.

استوقفَ الحرس ذلك الفارسَ الغامض والغريب، باشره أحدُهم قائلًا:

– أنتَ يا هذا، ألا تعلم إلى أين يؤدّي بك هذا الطريق؟ إن كنت غريبًا فحريّ بك أن تسأل قبل أن تلجه هكذا.

وبصوتٍ عميق وثابتٍ ورصين ردّ الفارس قائلًا:

– أعلمُ وجْهتي جيدًا، فإنما قدمت لملاقاة الخليفة هشام المؤيد.

صاح فيه الحارس وحاجباه قد تقوّسا بعنف متعجبًا:

– لملاقاة الخليفة هشام المؤيّد هكذا جملة واحدة!! ومَن أخبرك أنه يمكنك ملاقاته؟

بنفسِ الثّبات والعمق والغموض قال له الفارس:

– فقط أخبره بأني جلبتُ له شيئًا لم يسبقني إليه الأوّلون، ولن يصل له اللاحقون.

صاح فيه الحارس قائلًا:

– هيّا انصرف، فلا وقت لدينا لهذا الهزْل.

مدّ الفارس يدَه إلى صدره ممّا جعل الحرّاس يتأهبون بقوة شكا في أنه سيستلّ سيفه ولكنّه أخرجها تحمل حافظة قماشية كبيرة وزاهية تحوي جسمًا مستطيلًا قد يكون صندوقًا مسطحًا أو كتابًا كبيرًا، ومدّ يده به إلى الحارس قائلًا:

– احذرْ أن تفتح هذه اللّفافة قبل أن يراها هو، وأعطها له وسوف يطلب هو مقابلتي.

هذا المزيجُ العجيب من الغموض والثقة أربكت الحارسَ بالفعل، خشي أن يكون الأمرُ بأهمية تجعله ينال عقابًا إن ضيّعه، وتزايدت خشيته من أنْ يكون تافهًا لا يستحقّ كلّ ذلك، ازدرد ريقه بصعوبةٍ، وبعد تردّد مدّ يده وتناول اللفافة وانطلق إلى الدّاخل بعد أن أوصى الحرّاس بإحكام الرّقابة على ذلك الغريب الغامض.

وفي منتصفِ الطريق لم يتمالك نفسَه من شدّة فضوله؛ فقرّر أن يرى محتوى تلك اللّفافة فقد يمكّنه ذلك من الحكم على مدى أهمية الأمر، ولن يرَ أو يعلم مخلوق بما فعل، وقد كان؛ وبمجرّد أن رأى محتواها حتى أعاده إلى موضعه وقد هربت الدماء من وجْهه وانطلق مسرعًا إلى مجلس الخليفة ليخبره بكلّ ما فات دون أن يشير إلى ما فعله من استطلاع لمحتوى اللفافة.

وفوْر أن أخرج الخليفة هشام المؤيّد ذلك المحتوى، لم يختلف ردّ فعله عمّا اعتمل بالحارس حين رؤيته، فصرخ به أن يدخله على الفور.

وبعد دقائق، كان المجلس لا يحوي سوى الخليفة هشام المؤيّد، وذلك الفارس الذي لم يعرف نفسَه أبدًا، وبعض الحرّاس المتحفّزين على أطراف القاعة الشاسعة في موضعٍ يسمح لهم بالرّقابة البصرية دون سماع شيء.

نظر الخليفةُ إلى ذلك الكتاب العجيب الذي كانت تحويه اللفافة، كان غلافه مصنوعًا من جلود الحيوانات، والتي تظهر بأن عمر الكتاب دهرًا، وأوراقه لها ملمس خاصّ لا يمكن الحكم عليها أبدًا من أيّ مادّة قد تمت صناعتها به، ورغم ضخامة الكتاب إلّا أنّ ثلث صفحاته فقط هي التي كانت مخطوطة به، وكان العجبُ كلّه في تلك المخطوطات؛ فقد كانت بلغاتٍ ورموز كثيرة جدًّا، ومتنوعة بشكلٍ فريد، كلّ صفحة لا تشابه الأخرى أبدًا، صفحة كلّ ما بها رسوم ورموز فقط، وقد يكون بها أثرٌ من دم متساقط عليها، وصفحة بها حروف يونانية وأخرى عربيّة، وبعضها بلغاتٍ لم يكن من الممكن معرفتها وقتها، وكان أثر الزمن مختلفًا بين كلّ ورقةٍ وأخرى، والأعجب أنّ ثلثي تلك الصفحات كان فارغًا تمامًا بلا حرفٍ واحد.

عاجله الخليفة متعجبًا ومتسائلًا:

– ما هذا؟

من بئرٍ سحيقة، صدر صوتُ الفارس بصداه ورصانته المعهودة قائلًا:

– إنّه كتابُ الأقدار.

– كتاب ماذا؟!!

– كتابُ الأقدار يا سيدي، مزيجٌ من السّحر والكثير من الأعمال الخارقة اتحدت داخلَ هذا الكتاب لتخطّ فيه قدرك بيمينك،

ما تتمنّاه أو تريده أن يحدث لك، فقط اكتبه في إحدى صفحاته، وسترى أنه قد تحقّق كما كتبته تمامًا، وكأنك كنت تستطلع الغيب.

هزّ الخليفة رأسه متعجبًا، ولم يلبث أن قهقه قائلًا:

– هذا عبثٌ وخبل، والتصديقُ والعمل به قد يدخل في مجال من مجالات الكفر.

وكأنّما كان هذا الفارس قد صبّ وجهه من فولاذ مصمت لم تتغير ملامحه بأي تعبير انفعاليّ وهو يقول:

– الكتاب هو هديتي لك إذا أردت تجربته في يوم لن تخسر شيئًا.

وضعَ الخليفة الكتابَ جانبًا كأنما هي إشارة بقبوله للهدية وقال:

– وكم تتوقّع من مكافأة مقابلَ هذا الكتاب؟

صمتَ الفارس هنيهة وقال:

– مكافأتي التي أريدها منك مقابل هذه الهدية لا أنتظرها الآن، إنما ستكون بعد حين.

متسائلًا ومتعجبًا قال له الخليفة:

– وما هي؟!!

طال صمتُه هذه المرّة كثيرًا، وأخيرًا قال:

– عندما تراني في المرّة المقبلة، مكافأتي هي ألّا تقتلني.

وقد كان ذلك في العام ١٠١٠م بمدينة قرطبة عاصمة الأندلس.

* * *

تولّى الخليفة هشام المؤيّد الحكمَ في حقبة يملؤها كلّ العجب، فقد كان أباه الحكم المستنصر من أفضل حكّام الأندلس إلّا أنه في أواخر حياته وعندما أصيب بالشلل ارتكب خطئًا فادحًا كان له بعيد الأثر فيما بعد في زوال امبراطورية الأندلس، وذلك باستخلاف ولده هشام المؤيد لحكم الأندلس من بعده، وهو ما زال صبيًّا في العاشرة من عمره، فدولة مترامية الأطراف يتربص بها الأعداء من كلّ صوب وحدب، من الحكمة والعدل أن يستخلف لها حاكمًا قادرًا على إدارة شئونها، وقد ظهر الصّراع مبكرًا فور وفاته التي كانت عام ٩٧٦ م.

كان بالقصر حزبان قويّان ومختلفان، الأول (الفتيان الصقالبة) وهُم ما يشبه حاليًا بالحرس الجمهوري أو الحرس الخاصّ، والذين كان عددهم يفوق الألفي فرد، لهم نفوذٌ واسع وتدخّل كبير في كثيرٍ من مختلف شئون القصر بما يتعدّى مجرد الحماية فقط.

والحـزبُ الثّاني هو حزب الحاجب جعفر بن عبد الرحمن المصحفي، والذي يشابه الآن رئيس الوزراء ومعه رئيس الشرطة محمد بن أبي عامر ومن خلفهم زوجـة الحاكم نفسه (صبح البشكنسية).

كانت فكرة الفريق الأوّل أن ينتقل الحكم لشخص آخر غير هذا الصبي وهو عمّه (المغيرة بن عبد الرحمن)، وبهذا يكون لهم الفضل عليه بانتقال الحكم له وتتّسع سلطاتهم أكثر.

والفريقُ الثّاني وجد أنّ حكم الصبي يعطي جميع صلاحيات الحكم للحاجب وهذا هو الأفضل لهم.

وبمؤامرةٍ لم تخلُ من الدّم فاز حزب الحاجب؛ فقد تخلّصوا من عمّ الصبي (المغيرة بن عبد الرحمن)، وبعد ذلك سحبوا من الفتيان الصّقالبة كلّ ما يتمتعون به من مزايا ونفوذ حتى تفرّقوا وتشتّتوا جميعًا، فاستقرّ لهم الملك بعد ذلك.

كان هذا في الدّاخل، أمّا الخارج، فبمجرّد علم النصارى بموت الخليفة الحكم المستنصر حتى جيّشوا الجيوش وكثّفوا الهجمات على مختلف الثغور والجبهات، نجحوا في كثيرٍ من معاركهم تلك، حتى قيل بأنهم في بعض الأحيان وصلوا إلى قرطبة نفسها عاصمة الخلافة الإسلامية في الأندلس.

وكأنّما كان صغر وضعف الخليفة الذي لا يملك من أمره شيئًا كان منسحبًا على كلّ أتباعه ورجاله؛ فقد تسرّب الوهن في قلوب الجميع.

ولكن، كان هناك أربعةٌ هُم أصحاب الذّكر في ذلك الوقت..

أوّلهم الحاجب (المصحفي) والذي أصبح حاكم قرطبة، ولكن لأنّه وصل إلى منصبه هذا لا لشيء إلّا لقدم وجوده بالقصر وقربه للخليفة؛ فقد كان ضعيفًا جبانًا لم يخرج من قبلُ في أيّ معركة، ولم

يتحرّك يومًا سعيًا لقتال، وكان هذا أحد أسبابِ نجاح الهجمات النّصرانية حيث أنه لم يعدّ العدّة المناسبة لمواجهتهم ولم يكن لديه العزيمة اللازمة لصدّ هذا العدوان.

الشّخصية الثانية هي صبح البشكنسية أمّ الخليفة الصبي والتي أصبح لكلمتها مفعولُ السّحر؛ تأمر فتطاع دون نقاش أو مراجعة.

ثالثهم: فارسُ الأندلس الكبير وصاحب التاريخ الجهادي الزاهر (غالب الناصري) والذي لم يظهرْ في الأحداث وقتَ موت الخليفة لأنّه كان مرابضًا على أحد الثّغور، ولم يكن يحبّ ولا يطيق الحاجب (المصحفي) ذلك لأنه يراه غير أهل لما وكل إليه بما عرف عنه من جبنٍ وبخل، وقيل بأنّه حين اشتدت هجمات النصاري على الاندلس أصرّ غالب على عدم مغادرة الثّغر الذي يرابض به كي يجعل المصحفي يخرج مرّة للجهاد فيستحقّ منصبه الذي هو به.

رابعهم: قائد الشرطة محمد بن أبي عامر، والذي كان عبقرية فذّة ونموذج فريد لا يتكرّر أبدًا، بدأ حياته كاتبًا لأحد القضاة، فلمّا رأى منه ذكاء ونبوغًا كبيرين أوصى عليه الحاجبُ المصحفي، وتصادف ذلك في وقت رزق فيه الخليفةُ الحكم المستنصرُ بولده عبد الرحمن، فرشح له الحاجب المصحفي ذلك الشاب العبقري ليرعاه ويقوم على أموره.

فكان يقوم بواجبه خيرَ قيام، وظهر من أخلاقه وذكائه ما أعجب به الخليفة، ولما توفّي الطفل عبد الرحمن وهو ما زال صغيرًا

رزق الخليفة بولده هشام فوكل رعايته أيضًا لمحمد بن عامر.

وما لبث أن تدرّج في المناصب الكثيرة والمتنوعة والمختلفة، مرّة أمينًا على دار السّكة (وزارة المالية) التي تسكّ العملات، ثمّ ناظرًا للخزانة العامة وخطة المواريث، ثم قاضيًا لأشبيلية، ثمّ مديرًا للشرطة.

والعجيبُ أنه رغم اختلاف كلّ مهامّ منصب عن الآخر تمامًا، إلّا أنّه كان يبرع فيه براعة لم يسبقه إليها أحد.

وكان يستقيمُ أمر المكان الذي يوكل إليه بقيادته، كلّ ذلك بالرغم من صغر سنّه عن كلّ سابقيه في تلك المناصب، وبالطبع لم ينسَ فضل الحاجب المصحفي عليه فكان هو أقرب المقرّبين إليه يخبره بكلّ أموره ويستشيره في كلّ شئونه.

ولهذا عندما كثرتْ هجمات النّصارى التي كادت تنال من دولة الأندلس الزّاهرة، ولأنّ دماء الحمية والشّجاعة تسري بعروقه، لم يرق له هذا الضعف والوهن الذي أصاب المملكة بعد موت الخليفة رغم تركِه لجيشٍ جرّار قوي خلفه.

ولهذا عرض على الحاجب المصحفي أن يؤلّف جيشًا، ويخرج لقيادته ومواجهة تلك الهجمات.

ووافق المصحفي ودعّمه بما يريد من ميزانية كبيرة، واختار محمد بن عامر رجاله بنفسِه، وخرج بجيشه ليعيدَ للأندلس أمجادها وفتوحاتها، وحقّق انتصارات لم يصلْ إليها أحدٌ قبله..

وارتفع نجم بن عامر عاليًا، وانبهر به جموعُ الشعب الأندلسي فغزت محبّته قلوبهم، وأصبح هو رمزًا من رموزهم الكبيرة..

ولكن يبدو أنّ مرض العُجب هو الـدّاء العضال في ذلك الزمان..

فبما له من دهاءٍ وذكاء خطّط لكي يصير إليه أمر دولة الأندلس، ولعلمه بالعداوة التي بين فارس الأندلس غالب الناصري والحاجب المصحفي، فقد ذهب لصبح وللخليفة الغلام، وأخذ يعدّد لهم مثالب وقوّة وشجاعة وإخلاص غالب الناصري.

فكان أنْ نال الرّضا منهما فأوْكلا لغالب الناصري ما يشبه وزارة الدفاع مشاركة مع محمد بن عامر بحيث يعدّ كلّ منهما جيشًا لمواجهة هجمات النصاري.

وأعجب غالب بقوّة وشجاعة وبراعة محمد بن عامر، فكان تحالفهما معًا ذا أثرٍ عظيم للنصر في معارك شتى.

ولكنْ آثرَ غالبُ أن ينسب الفضلَ كلّه لمحمد بن عامر، وأرسل يخاطب الخليفة بأن محمدًا هو الأحقّ والأوْلى بمنصب الحاجب من المصحفي الرعديد.

وكان المصحفي والي قرطبة بجوار منصبِه كحاجب للخليفة، فما إن عاد محمد بن عامر محملًا بالغنائم والمآثر حتى عزل الخليفة المصحفي من منصب والي قرطبة وتولّاه بدلًا منه محمد بن عامر كمكافأة له.

وكالعادة، أظهر محمد بن عامر براعةً وعدلًا وحكمًا رشيدًا للمدينة لم يره أهلها من قبل.

وشعرَ المصحفي بالخطر الذي يتهدّده، فما كان منه إلّا أنْ ذهب في خطوة استباقية ليخطب ابنة غالب لولده، وقبل أن ينال الردّ بالموافقة، كان محمد بن عامر قد سبقه وخطبها لنفسه.

وهنا، انكمش المصحفي وقد علم بأنّه لا قِبَل له بمواجهة محمد بن عامر فآثر عدم عداوته، وهنا استطالَ نفوذُ محمد بن عامر، وأصبح رائحًا وغاديًا على القصر والقائمَ الفعلي بمهامّ منصب الحاجب الذي لم يتبقّ للمصحفي منه سوى اللقب،

وخرج محمد بن عامر بصحبة غالب للمرّة الثالثة في غزوةٍ جديدة موفقة فتح فيها أكثر من حصن، ودخل أكثر من مدينة، وعاد بأكثر مما حصل عليه من غنائم في المرّات السابقة.

وليتمّ حفل زفافه بشكلٍ لم ترَهُ الأندلس من قبل، وكانت مكافأة الخليفة له أن تقلّد منصب الحاجب مشاركة للمصحفي.

وما لبثَ أن عزل المصحفي من المنصب ليلتقي به في السجن ليقضي نحبه به،

ولم يرد كيفية موته حتى الآن هل كانت طبيعية أم بالسمّ أم قتلًا بالسيف!

لتدخل الأندلس- بالكامل- مرحلة لم.. ولن تراها من الازدهار والرخاء

وكيف لا وقد تقلّد أمورها ذلك الرجلّ محمد بن عامر بما له من ذكاء وحنكة وعبقرية وشخصية قيادية فطرية.. لتزداد الفتوحات أكثرَ وأكثرَ، حتى توفاه الله في عام ١٠٠٢م.

وبهذا يكون قد حكم الأندلس فعليًّا مدّة ستة وعشرين عامًا متّصلة.

ولكنْ، قبلَ وفاته أقدمَ على فعل لم يسبقْه إليه أحدٌ في جميع الدول والخلافات العربية المتتالية، فمِن المعروف أنّ ولاية العهد تورث في منصب الخليفة فقط،

ولكنّه جعل ولاية العهد لولده في منصب الحاجب، وبالفعل تولّى ولده عبد الملك منصبَ الحاجب من بعده لمدّة سبعة أعوام متصلة، وكان خيرَ خلفٍ لخير سلف، فقد سار على درب أبيه؛ كان يخرج للجهاد مرّة أو مرّتين كلّ عام، ولم تهتز المملكة في عهده أو ترى لمحة ضعف أو وهن.

وعندما توفي في عام ١٠٠٩ م، تولى منصب الحاجب من بعده أخوه عبد الرحمن شنجول، وبكلّ أسف لم يكنْ أبدًا ذلك الولد الذي يمكن الحكم عليه بأنه من صلب أبيه؛ فلم يرثْ منه أيّ صفة من محاسنه؛ فقد كان شابًّا ماجنًا فاسقًا شرّابًا للخمر فعّالًا للزّنا كثيرَ المنكرات، وعندما رغب في التزوج كان من ابنه ملك نافار النصرانية، ولهذا كرهه شعبُ الأندلس وهم يتحسّرون على عهدي أبيه وأخيه.

وأقدم عبد الرحمن شنجول على شيء لم يتجرّأ عليه أبوه ولا أخوه، فقد عيّن نفسه وليًّا للعهد على منصبِ الخليفة، والخليفة الحالي الذي ظلّ طوال هذا العمر المديد، وقد اقترب من عامِه الخمسين لا يد ولا تصرّف حقيقي له في أي أمر من أمور الدولة، وإنّما يستكتبه من حوله ويستنطقوه بما يريدون من قرارات، فقد كان الحاجب هو الخليفة الفعليّ من وراء ستار طوال عهد هشام المؤيد الذي ورث الملك في عامه العاشر..

ولكنّ قرار عبد الرحمن شنجول هذا مع كراهية الشّعب بالكامل له كان الإيذان بنهاية عهد أسرة محمد بن عامر، فرغم فسقِه ومجونه إلّا أنّه كان يخرج للجهاد على رأس جيشه؛ ولذا ما إنْ خرج في ذات مرّة لمعركة جديدة في الشمال، حتى ثار الشعب ووجّهوا ثورتهم هذه المرّة في الاتجاه الصحيح فقد هجموا على القصر وخلعوا هشام المؤيد بالقوة، وعيّنوا بدلًا منه خليفة لقب بالمهدي، الذي أراد أن يستقرّ له الأمر، فأرسل طلبًا لرأس عبد الرحمن شنجول.

وما إن علم الجيش المحيطُ بعبد الرحمن بالثّورة حتى انفضوا من حوله، وبهذا فقد سهّلوا عملية قتله والتخلص منه.

وأخيرًا، عاد منصبُ الخليفة ليحكم بالفعل من جديد، ولكن هذا المهدي خانه التّوفيق في كلّ قراراته، فقد استعدى الجميع دفعة واحدة، فبدأ التنكيل بالأسرة العامرية والبربر لدرجة أنّه أشاع أنّ مَن قتلَ بربريًّا له جائزة، وكانوا أولو قوّة وشأن بالدولة.

وانتشرت عملية القتلِ والهتْك بين البربر، وبدأ نسيج الوطن في التمزّق مما استعدى الأمويين عليه كذلك، وهنا فرّ البربر إلى الشمال وكونوا جبهة كبيرة وولوا أمرهم سليمان المستعين؛ لتبدأ حربًا ضروسًا بين المهدي وسليمان المستعين، ولأنّ سليمان المستعين يعلم بأنّ قوته مهما عظمت لن تصمدَ كثيرًا أمام خزينة الخلافة، وقدرتها على تجْييش الجيوش، فقد أقدمَ علي فعل في منتهى الخطورة كان بداية النهاية للأندلس.

فقد استعان بملك قشتالة النّصراني المتربّص بدولة الأندلس لمواجهة المهدي، وكانت تلك هي الفرصة الذهبية التي ينتظرونها منذ أمد.

فجنّدوا الجنود وأعدّوا العتاد، وخرجوا لمؤازرة سليمان المستعين ضدّ الخليفة المهدي ويحقّقوا نصرًا كبيرًا.

كانت مكافأتهم أنْ أقاموا قاعدةً كبيرة لهم داخل الأراضي الأندلسية لتكون هذه هي الشوكة الكبيرة التي استغلّوها لإشعال الفتن والمؤامرات الدخلية بالأندلس وكان ذلك عام ١٠١٠م.

ولكنّ المهدي الذي فرّ إلى الشمال قبل أن ينالوا منه، وهناك بدأ يعدّ العدّة لمعاودة الهجوم على سليمان المستعان ليستردّ مكانته.

وبكلّ خزي لجأ لنفس سلاح سليمان؛ فقد استعان بأمير برشلونة النّصراني المتربّص كذلك بالأندلس.

وهنا فرض عليه هذا الأمير شروطًا أبسط صفةٍ لها هي أنها

منتهى العار لمن يقبلها؛ فقد أخلى له مدينة كاملةً من المسلمين، وصرف لهم رواتبَ خيالية، ولمّا دخلوا المدينة- أوّل ما دخلوها- توجّهوا لمسجدها الكبير، وحوّلوا قبلته وعلقوا به جرسًا ليصبح كنيسة لهم.. كلّ ذلك هانَ عليه مقابل أن يستعيد الملك.

وبدأت الحربُ الضروس لينتصر المهدي على سليمان بمعونة أمير برشلونة الذي نالَ مكافأته؛ أن أخذ مدينة سالم التي خصّصت لتمركزهم من البداية مع الكثير من الغنائم، ولأنّ المهدي بما فيه من صفات مشينة ودناءة غير معهودة لم يتعلم الدّرس وظلّ على حمقه في الحكم ليستعدي الجميع وكثرت استعانته بأعداء أمته على أبناء جلدته ودينه، حتّى ضاق أهل قرطبة به ولم يطيقوا صبرًا؛ فكانت الثورة عليه بأن أغْروا به أقربَ الناس إليه ليقتله مقابل أن يكون هو الخليفة عليهم، وقد قتله الفتى وضّاح بالفعل أقرب المقرّبين له، ولكنه كان من الذكاء بأن رفض منصب الخليفة مقابلَ أن يعود هشام المؤيّد لمنصبه الذي خلعوه منه على أن يكون هو الحاجب.. وبما عُرف عن هشام المؤيّد بأنه لا ناقة له ولا جمل في الحكم؛ فقد عاد منصب الخليفة الفعلي بيَدِ الحاجب الفتى وضّاح..

ولكنّ سليمان المستعين العدوّ التلقائي للمهدي، وأوّل مَن استعان بأعداء الأندلس ممثّلين في جيش ملك قشتالة ما زال حيًّا، ويرى نفسه أحقّ بالملك ويريد العودة، وهنا لكي يستقرّ الملك تقع مصيبة أكبر، فَلِكَي ينفض ملك قشتالة عن سليمان المستعين ويفقده

مصدر قوته؛ تنازل الحاجب بموافقة الخليفة هشام المؤيد عن أكثر من مائتي حصنٍ لملك قشتالة مقابل تخلّيه عن دعم سليمان المستعين، ولكنّ سليمان المستعين لم يسكت، فقد ذهب بما معه من جيش من البربر واقتحم مدينة قرطبة لا لشيء؛ وإنّما محاولة يائسة للانتقام، فعاثوا فسادًا في المدينة قتلًا وخرابًا واغتصابًا في بني جلدتهم ودينهم.

ولكنِ انتصر في هذه المعركة ليعود للملك مرّة أخرى وأخيرة بنهاية الخليفة هشام بن الحكم أو هشام المؤيد، وكان ذلك عام ١٠١٢[١]

* * *

مارك أولدوين، أحد أساتذة جامعة هارفارد المخضرمين والمتخصّصين في تاريخ الوثائق والمخطوطات العربية القديمة. أصلع الرأس ضخم الجثة متصبّب العرق دومًا صيفًا وشتاء، إذا رأيته جالسًا تظنّ بأنه ملتصق بمقعده ولن يغادره أبدًا، وأثناء تحركه باهتزاز شحومه تظنّ بأنّ الرّواق أو القاعة التي يجول بها تهتزّ معه..

عاشقٌ حقيقيّ للتاريخ العربي القديم، يقيمُ وحيدًا بمنزله المكوّن من طابق واحد، وكعادة المناطق الرّاقية والهادئة تمتدّ أمامه حديقة صغيرة بها بضع شجيرات على أطرافها، وعلى جانبي الممرّ الذي

(١) كلّ ما فات هي حقائقُ تاريخية موثقة، ما عدا مشهد الفارس الغامض فهو من خيال الكاتب.

يؤدّي إلى الباب الداخلي للمنزل، ويسود بقية المساحة الحشائشُ الخضراء القصيرة لتشكّل المشهد الأخضر المريح لبصره حينما يجلس بالشّرفة الواسعة المطلّة على حديقته، وذلك أثناء مطالعته لأحد كتبه ومراجعه الكبيرة.

تركتْه ابنتُه الوحيدة منذ عام، وانتقلت لتعيش مع صديقها، وكلّ عدّة أسابيع قد تأتيه منها مكالمةٌ هاتفية تسأله عن أخباره، وإنْ كان يشعر بأنها تفعل ذلك لترى هل ما زال على قيد الحياة أم لا!!

يعيش وحيدًا بمنزله هذا بعد مغادرة ابنته له، ومِن قبلها وفاة زوجته منذ أعوام ثلاثة، ويستعين بأحدِ الخدم لينظّف ويرتّب المنزل ويعدّ له الطعام، ثمّ يغادره مساء ليعود له صباحًا قبل ذهابه لجامعته.

لديه قبوٌ خاصّ كان معدًّا لتخزين الخمور في عهد مالك البيت السابق، ولكن لأنه لا يسرفُ في تناولها ولا يخزّنها لديه؛ فقد خصّص هذا القبو لحجب أشيائه الثمينة فيه، وفي أحدِ أركانه وأدراجه الخاصّة ترك مسدسه محشوًّا ومعدًّا إذا احتاج يومًا له عند دفاعه الأخير عن حصنه الذي يحوي كلّ كنوزه الهامة.

كانت حياته رتيبة، وتسير على وتيرةٍ واحدة ما بين محاضراته بالجامعة وأبحاثه الخاصّة حول الوثائق النّادرة التي أصبح يعشقها وينفق الكثير من ماله عليها، والغريب أنّ وثيقة واحدة كانت السبب في تغيير كلّ حياته.

ولم تكنْ أبدًا وثيقة عربية من بين آلاف الوثائق التي عمل

عليها، بل هي صفحة من مذكرات أحدِ جدوده الذين شاركوا في إعادة تنظيم وتطوير وأرشفة مكتبة الفاتيكان السرية.

تلك المكتبة التي تأسّست عام ١٤٥١ م كمكتبةٍ شخصية للبابا نيكولاس بابا الفاتيكان وقتها، وكانت تضمّ فقط ١١٦٠ كتابًا، ولكنْ مع مرور الزمن كبرت وتعملقت، وتطوّرت لتحوي أكثرَ وأخطر وثائق وكتبِ ومخطوطاتِ العالم أجمع، فهي الآن بها أكثرُ من مليون كتاب، وسلاسل من المطبوعات، و ٧٥ ألف مخطوطة سريانية وأثيوبية وفارسية وعبرية وعربية ويونانية ولاتينية أقدمها تاريخًا من القرن الثاني الميلادي و ٦٥ ألف مجلدٍ و ٨ آلاف معجمًا و ٢٣ وحدة أرشيف و ١٠٠ ألف خريطة ورسم وحفرية و ٣٣٠ ألف عملة معدنية ووسام بابوي وروماني ويوناني، ويدخل المكتبة كلّ عام ٦ آلاف مجلدًا. يعمل في المكتبة ٨٠ موظفًا في خمسة أقسام هي قسم المخطوطات والمجموعة الأرشيفية والكتب والرّسوم والعملات المعدنية. يديرها منذ عام ١٩٨٤ الأب ليونارد بويل أستاذ سابق في علوم الحفريات في معهد اللاهوت المتخرّج في جامعة تورنتو في كندا في تاريخ القرون الوسطى.

كانت تلك المكتبة سرية جدًّا، وغير مسموح لمخلوقٍ بولوجها لما بها من كنوز سريّة خطيرة قيل بأنها قد تغيّر عقيدة العالم أجمع لو ظهرت.

ويوجد بها كمثال فقط للآثار العربية: مخطوطات الرازي وابن سينا وابن رشد والغزالي وابن الهيثم والفارابي؛ النادرة..

طوال القرون السابقة كان الدّخول إلى مكتبة الفاتيكان مقيدًا ومحصورًا بمجموعة مختارة، بعدها سمح البابا ليون الثالث عشر لقرّاء (مؤهلين) دخولها.

وفي عام ١٩٨٣ فتحت المكتبة للقرّاء بشروطٍ صارمة خوفًا على المخطوطات، وفي ١٩٨٨ خفّفوا من دخول (القرّاء المؤهلين) وبعد اعتراضات شديدة من أكاديميّين مؤثرين فتحوا أرشيفات الفاتيكان السرية للقرّاء مرّة أخرى.

أصبحت مكتبة الفاتيكان ليست لحفظ الكنوز الثقافية النادرة والكثيرة، بل تحوّلت إلى مكان للبحث والدراسة والاستقصاء لذوي الاختصاص من فئة معينة فقط.

رغمَ ذلك فقد كانت الشّروط قاسية حفظًا للكنوز الثقافية من التلف، فقد سمح بالدّخول للعلماء المعروفين في العالم، الباحثين الموثقةُ أبحاثُهم من أكاديمية في الفاتيكان، والطلاب المزودين بوثائق من جامعاتهم. من الشّروط أن يكون الدّاخل متدربًا في التعامل مع المخطوطات والكتب. ويحمل شهادة بعنوان طالب الدّخول إلى المكتبة، ويخلع المعاطفَ وحفظ الحقائب والمظلات والظروف البلاستيكية والأجسام الشفّافة في خزانات خاصّة، وارتداء ثوب معقّم خاص بالمكتبة خوفًا من الميكروبات الغريبة التي قد يحملها القراء، ويمنع إدخالُ أي جهاز آلي إلى المكتبة، كما يخضع القارئ للفحْص الأمني والتفتيش في أي وقت، ولا يسمح باستخدام

الهواتف النقّالة، وعدم حمل المفاتيح، وعدم حمل مقصّ أو قاطعات أو ورقٍ أو شريط لاصق أو صمغ أو مصحّح الحبر، ولا يسمح بالتصوير والاستنساخ أو حمل الكاميرات الرّقمية أو المسجلات والنواسخ الضوئية أو أي أداة أخرى تسمح بإعادة استنساخ مواد المكتبة، كما أنّ تقليب صفحات المخطوطات ينبغي أن يكون بعناية وبطء، وعدم إسناد الأيدي والأصابع على المخطوطة، الداخلون للمكتبة ينبغي لهم الامتثال إلى أوامر المعينين فيها دون مناقشة، أمّا الطعام فممنوع منعًا باتًّا، والتدخين يُجْرى في الفناء بعيدًا، ينبغي الانتظار أمام منضدة الاستقبال عند طلب وثيقة سرية، أمين المكتبة يحدّد أماكن جلوس القرّاء في قاعة المطالعة، القارئ ملزَمٌ بالاستخدام اللائق والصحيح لأثاث المكتبة، ويمنع تحرّك القراء في الممرّات،كما ينبغي تعقيم الأيدي عند التعامل مع المخطوطات، تستخدم أقلام الرّصاص القابلة للمسح فقط في غرفة المطالعة. يحال إلى القضاء مَن يمزّق أو يسرق أو مَن يضع علاماتٍ أو تعليقات على الكتب ولو بقلم الرصاص، وأولئك الذين يعرقلون أعمال الآخرين، ومَن يدخن في حدود المكتبة يتحمل القارئ الالتزام بقواعد المكتبة قانونيًّا ويوقّع تعهدًا بذلك. ويجب الصّمت الكامل ليس لمن يدخل المكتبة أو قاعات المطالعة فقط؛ بل في كلّ المباني التابعة للمكتبة.[1]

ومِن المعروف أنّ أكبر وأعظم المكتبات في العالم ثلاث؛ هي

(١) كلّ ما فات عن مكتبة الفاتيكان حقائق واقعية ومثبتة.

مكتبة الفاتيكان ومكتبة الكونجرس ومكتبة روسيا المركزية.

مكتبة روسيا المركزية مكتبة معزولة عن العالم، أمّا مكتبة الفاتيكان فعلى اتصال وثيقٍ مع مكتبة الكونجرس منذ ١٩٢٧ في كافة الميادين منها مشاركة مبوّبين ومفهْرسين من مكتبة الكونجرس، يرأسهم تشارلز مارتيل و س. أم هانسن من جامعة شيكاغو والأسقف وليام وارنر ومدير المكتبات العامة في جامعة ميتشيجان ووليام راندل وجون انستينسون الذي أصبح بعدئذ أمينًا عامًّا لمكتبة الفاتيكان. فتولّت هذه المجموعة تنظيم وتصنيف مكتبة الفاتيكان بالشكل الذي تجري عليه مكتبة الكونغرس وطريقة حفظ الكتب الجديدة ذاتها، وأشرفوا على ترميم بناية مكتبة الفاتيكان لقدمها حيث أنها قامت منذ عهد النهضة الأوروبية. وأكملوا عمليات الفهرسة ونظام البطاقات للمحفوظات. بدأ التجديد في العمل المكتبي بمنحةٍ من مؤسسة كارنيغي، وكان التعاون قد بدأ في جميع الميادين في ١٩٢٨.

وكان جدّ مارك أولدوين أحدَ المساعدين المشاركين لهؤلاء الكبار في عملية تنظيم وفهرسة وتبويب وتنسيق مكتبة الفاتيكان عام ١٩٢٨. وكتب تفاصيل ذلك في مذكراته، ولكن..

صفحةٌ واحدة حملت مفاجأةً لم ينَمْ بعدها مارك منذ أن علمها..

كتب جدّه يقول:

«كتابٌ واحد هو الذي سحرني، وكنت على أتمّ الاستعداد أن

أدفع حياتي مقابل الحصول عليه، الكتابُ هو مزيج من السحر، وكلّ الأعمال الفوق طبيعية والخارقة.

إذا لمسته وجدتَ سحرًا خاصًّا ينتقل منه إليك...

إنّه كتاب الأقدار؛ حيث يمكنك أن تخطّ فيه قدرك بيمينك.

منذ أنْ وضعته على الرّفّ التاسع في الجهة الغربية، وأخذ رقم ٢١٣، ولشدّة الرّقابة التي أعجزتني عن أخذه، وأنا أضع حلم العودة وأخذه نصبَ عينيّ».

وأخذ الرجل يصف الكتاب بصفحاته وصفًا تفصيليًّا كأنما مارك يراه بعينيه،

ولأنّ مذكرات جدّه لم تشِرْ من بعيد أو قريب لعودته إلى مكتبة الفاتيكان فيما بعد؛ علم مارك بأنّ الكتاب ما زال مستقرًّا هناك في ذلك الموضع حتى هذا العام، عام ٢٠٠٩.

وأصبحت حياة مارك مكرّسة على استكمال حلم جدّه في نيْل ذلك الكتاب، والحصول عليه من أرفف مكتبة الفاتيكان السرية.

ولكن كيف؟!!

عندما خرج من قاعة محاضراته في هذا الصباح، كان قد عزم الأمر، سيضطرّ إلى التّعاون مع تلميذه المشاغب والفذّ والموهوب والنجيب والعاشق مثله للمخْطوطات العربية النادرة والقديمة، والذي يسعى الآن لنيل درجة الماجستير، إنّه مايكل توماس ابن رجل الأعمال الثري، والذي يهوى المغامرة والمخاطرة كأبيه، ورغم

سنّه الذي يقترب من عامه الثلاثين إلّا أنه كان يمتاز بجسد رياضي ممشوق وشعرٍ أسود لامع، وعينين نافذتيْن تشعّان ذكاءً وحماسة ونشاطًا، والذي بسبب دراسته للوثائق العربية لم يتوانَ في تعلم وإجادة اللغة العربية بدرجة لا بأس بها.

وما إنْ طالع مايكل صفحاتِ مذكّرات جدّ مارك القديمة وشرح له أستاذه عن رغبته في استكمال هذا الحلم الذي لم يتحقّق، حتى تفجّر الحماس بداخله وانتصب واقفًا ليقول بلهجة الواثق:

– هذا الكتاب سيكون معنا قبل نهاية هذا العام.

مدّ مارك يده ليجفّف عرقه الغزير، وهو يقول له:

– ولكنْ كيف!؟ جدّي عجز عن سرقته وقت أنْ كان من السهل فعلُ ذلك، أمّا الآن ومع كلّ تلك التطورات العصرية من وسائل الفحص والرقابة، فمن المستحيل فعلُها وسط ذلك النّظام الأمني الصارم.

ضحكَ مايكل وقال:

– راجع أفلام شون كونري وتوم كروز وبروس ويلز الأخيرة، وستجد بأنهم لم يقف أمامهم أيّ مستحيل.

قال له مارك باهتمام، وهو يعاود تجفيف العرق:

– دعْك من خيالات هوليود، نحن الآن أمام واقعٍ حقيقي ليس فيه حبكة درامية تشابه ظهور متعاون من الداخل أو استخدام تقنية تفوق تقنية حراسة المكان.

ابتسم مايكل وقال:

- عبقرية الخطّة دومًا تتوقّف على بساطتها، إنها تتشكّل في عقلي الآن، وأنت لك دورٌ كبير فيها.

اتّسعت عينا مارك دهشة، وجفّف عرقًا وهميًّا هذه المرّة وهو يقول:

- بحجْمي وعرقي هذين لا تتوقّع أن أقفز من هيلوكوبتر إلى سطح بناية لأقفز من سطحها مسافة طابقين إلى الأرض!

ضحك مايكل بقوّة، وقال:

- لا، ليس هذا ما أنتظرُه منْك، دعني أراجع وأضع الحبكة المناسبة للخطّة وسوف أعود إليك لأشرح لك دورَك فيها.

* * *

طوال شهرين كاملين من المراسلة لمكتبة الفاتيكان وإعداد الوثائق والموافقات اللازمة لدخول مايكل إلى مكتبة الفاتيكان السريّة رغبة في مطالعة أكاديمية لأحد كتبها، وبعد الحصول عليها كلّها، وعند تحديد اسم الكتاب الذي سيذهب لمطالعته؛ توقّف كلّ شيء، فبمجرّد علم إدارة المكتبة بأنّ الكتاب المراد مطالعتُه هو (كتاب الأقدار) وارتبك كلّ شيء...

بدأ الأمر بنفي تواجد هذا الكتاب..

فتمّ الردّ عليهم بموضعه ورقمه؛ ممّا زاد الذهول والارتباك لديهم، كان من الواضح أنّ هذا الكتاب من السريّة بمكان لا تسمح

لأحدٍ بمعرفة تواجده بالمكتبة، فكيف علمَ مايكل بذلك؟!

وتمّ عمل تحريات أمنية كثيفة حول شخصية مايكل وتاريخه الشخصي، وبعد مناوشاتٍ كثيرة أظهرَ لهم صفحات مذكرات جدّ أستاذه مارك، وأخبرهم بأن الصّحافة الأمريكية ستجد مادّة ثرية في الشهور المقبلة إن لم ينلْ حظّه في مطالعة هذا الكتاب.

فنشْرُ تلك المذكرات وإظهارُ إنكارهم لها سيسبّب لهم حرجًا كبيرًا هُم في غنًى عنه؛ بل سيظهر للعامّة ما هو كتاب الأقدار هذا، ولن يصبح الأمر محصورًا بينه وبينهم فقط.

وبعد كتابة إقرار صارمٍ وواضح بعدم إفشاء أيّ معلومات تتعلق بهذا الكتاب أو نشْر شيءٍ من مادته؛ وافقوا.. وتمّ اتّخاذ كلّ التدابير الأمنية لهذه الزيارة.

بدأ الأمر بأنْ تخلّى عن جميع ملابسه ليرتدي الزيّ المعقّم والمخصّص لدخول المكتبة، وذلك بالطّبع بعد أن ترك كلّ ما كان معه في أمانات المكتبة بالخارج

وارتدى القفّاز المعقم كذلك، وتمّ تحديد القاعة الخامسة والمقعد رقم ٩ للجلوس عليه.

والتزامًا لقوانين المكان لم ينطقْ بحرفٍ طوال مدّة تواجدة بالمكتبة.

وأخيرًا استقرّ على مقعده الذي كان في زاوية خاصّة تسمح لجميع كاميرات المراقبة برؤيته رؤيةً واضحة، هذا بالطبع مع المراقبة العينية من فردين متواجدين بالقاعة.

وصلَه الكتابُ ليتفحّصه بذهول، ولمسَ بالفعل كلّ ما ذكرَه جدّ أستاذه مارك أولدوين.

الكتاب به مزيجٌ خاصّ غير عادي، كأنما كلّ قوى الطبيعة قد تجمعت فيه، كانت به كتاباتٌ بلغاتٍ ميّز منها خمس لغات فقط يعرفها.

كان الوقت المتاح له فقط أربعون دقيقة..

كان كلّ شيء معدًّا بدقة عالية..

أخبروه بموعد دخوله وخروجه، ورقمِ القاعة ومقعدِه، وكلّ شيء بحيث يمكنه الدخول وهو مغمض العينين، وكأنما هو معتادٌ على ولوج المكان منذ أمد.

وعند الدقيقة التاسعة والثلاثين..

فجأةً انقطع التيارُ الكهربيّ لأوّل مرّة منذ عشرة أعوام، ولكن في خلال عَشْر ثوانٍ، كانت المحوّلات الاحتياطية قد قامت بعملها في بثّ الضوء وتشغيل كلّ الأجهزة الإلكترونية.

اندفعَ المراقبان إلى مايكل، كان على جلستِه كما هو، ويداه متدلّيتان بجواره وقد عادَ ليطالع الكتاب بنهَمٍ، وعندما همّ أن يمدّ يدَه ليقلب صفحة جديدة؛ أشار أحدُهما إلى ساعته مشيرًا بانْتهاء الوقت ووجوبِ الانصراف.

وبكلّ هدوء، ودون تبادل حرف، انطلق مايكل ليقفَ مرّة أخرى للتفتيش الصّارم، وتغيير كاملِ ملابسه أمامهم، وليخرج من المكتبة وعيناه تحملان بريق ظافرٍ لا مثيل له..

لقد نجحت الخطّة بامتياز تامّ.

* * *

قهقَه مارك أولدوين بقوّةٍ اهتزّت لها كلّ الشّحوم المثقل بها جسدُه وهو يمسك دفّتي الكتاب بيديْه بمنْتهى الحرص والعناية، وينظر لمايكل بإعجابٍ شديد قائلًا:

– عبقري أنت يا مايكل، وفريدٌ من نوعك، كلّ مَن تحدّثت عنهم من نجوم هوليود لا يقارنوا بخليةٍ واحدة من عقلِك الجبار هذا؛ فطوالَ شهرين، وبجهدٍ جَهيد، أعددت لخطّتك بكامل خطواتها وبكلّ دقّة رائعة.. ابتداءً من صنع كتاب مشابه في صفحاته تمامًا للأصلي معتمدًا على الوصف المذكور بمذكّرات جدّي

مع اختيار خامات لا تظهر فارقًا بين ما هو أثريّ ومزوّر، وذلك بالطبع عند رؤيته بالعين المجرّدة، ثمّ صناعة كرشٍ معتدل غير بارز لك من خامات أيضًا تمّ اختبارها عبر كلّ أنظمة الاستكشاف الأمنيّة الحديثة بحيث لا تظهر فارقًا بينه وبين جسدك الطّبيعي، كأنما هو حقيقي وجزءٌ منك، واختيار توقيت انقطاع التيار الكهربي وذلك بعد دراسة خرائط توزيعه بالمكتبة، والتي حصلتَ عليها أنتَ عبر شبكة الإنترنت، وشريكُك الذي كان بأحدِ حمّامات المبنى بعيدًا عن المكتبة، ولكن تعمّد توصيل طرفي التيار الكهربي ببعضهما البعض، وفي مكان محدّد ومدروس مسبقًا بحيث يحدثُ انقطاعٌ

عن هذا القطاع ومعه القاعة التي أنتَ بها، وبراعتك على أن تخرج النّسخة المزوّرة من كرشك المزوّر كذلك وتبديلها بالنسخة الأصلية في أقلّ من عَشْر ثوانٍ.. كم أحبّك يا فتى!.

اتّسعت ابتسامة مايكل وهو يقول:

- الحَظّ خدَمَنا في نمطيّة ودقّة ونظام العمل عندهم، فلوْلا تحديد كلّ شيء قبلَ الوصول إليهم ما كانت هذه الدّقة في تنفيذ الخطوات، وكذلك نظام أن الكتب تظلّ على وضعها فوق منضدتها حتى آخر اليوم ليأتي شخص واحد متخصّص ومدرّب على جمعها وإعادتها لأماكنها؛ لانفضح أمرُنا وتمّ الإمساك بي قبل مغادرتي، فبمجرّد غلق الكتاب سيكتشفون الحقيقة، أمّا أن يكون أمامهم مفتوحًا على صفحةٍ لا يعلمون حقيقةَ ما بها، وإنما فقط تشابهه بالمقارنة البصرية السّريعة فذلك ما ساعدنا على نجاح الخطّة، ولكن ما آلمني هو التدريب المتواصل على شفطِ بطني للداخل لمدّة طويلة خوفًا من انفصال الجزء الملصق بها بعناية حتى لا يظهر الفارق الحقيقي بيني وبينه.

اعتدل مارك وقال بأهمية:

- لقد غامرتَ وتعبت، وأخيرًا حصلنا على الغنيمة التي تسوى كلّ ذلك، وربما تفوقُه بكثير.

جلس مايكل، ونظر لأستاذه باهتمام، وقال ببطء:

- الكتاب بحوزتك، ولكنّه ليس ملكًا لك بشكل تامّ، فنحن شركاء فيه.

عاد مارك بظهره للخلف، ومسح بعضًا من عرقه، ونظر لتلميذه بتمعّن، وقال:

- أيّ نوع من المشاركة تريدُ في هذا الكتاب؟

مسحَ مايكل بيده على شعر رأسِه الطويل ليضبط تصفيفه للخلف، وقال:

- مشاركة في دراسته ومعرفة مدى فعالية ما قيل عنه بالفعل، وهل حقًّا ما يخطّ فيه يكون قدرك الذي اخترته ويتحقّق أم لا.

تنحنح مارك وقال:

- حسنًا، سنتدارسه، ولكنْ بشكل سليم وعلمي ومنهجي لنصل معًا لهذه الحقيقة.. وأبسط الأسس العلمية هي أنه إذا أردنا التّجربةَ يجب أن تكون على شخص واحدٍ منّا، والآخر يكون مراقبًا ومتابعًا للنتائج، فلربما يحدث ما لا يُحمد عقباه، فقد يكون مرتبطًا بلعنة ما.. وبما أني قد بلغت من العمر أرذله فسوف نبدأ التّجربة معي أنا؛ فليس لديّ ما أخسره.

ضحك مايكل وقد فهِمَ المغزى، وقال:

- لا مانع، ولكن بعد التيقّن من فاعليته، لي نصيب فيه يماثلك تمامًا.

ابتسم مارك موافقًا وقال له:

- اتّفقنا.

* * *

استيقظ ديفيد هنري من نومه وهو يتثاءب بقوّة، ومدّ يده لينظر في الساعة المجاورة له ليجدَ أنّ ميعاد استيقاظه قد فات بكثير.

لوّح بيده في لامبالاة كمَن اعتاد على ذلك، ونهض ليصطدم بأشيائه المبعثرة يمينًا ويسارًا بشقّته الضّيقة والمكوّنة من حجرة واحدة وصالة وحمّام، بعد أن استفاق بغمْس رأسه بماء الصّنبور وتجفيف شعره الأشْهب، اشتغل بإعداد وجبةٍ سريعة وضعَها في شطيرة، وارتدى ملابسه بغير عنايةٍ على عجل، وخرج يحمل بقايا شطيرته في يدٍ وأسفل إبطِه حقيبته التي يضع بها أوراقه القليلة، وفي اليد الثانية كوبُه المحبّب من القهوة الثّقيلة المركزة لتطير بقايا عدم التركيز والنوم من رأسه

واستقلّ سيارته البسيطة لينطلق بها إلى جامعته، والكلية التي يلقي بها محاضراته

كلية العلوم بجامعة هارفارد، فهو أحد الأساتذة المخضرمين في قسم الكيمياء بها.

ومِن أشهر المستشارين في مجال التّعقيم في الشركات الصناعية والغذائية، ولكن بالرغم من هذا التّميز إلّا أنّ ملفّه الأخلاقي غير نظيف.

فقد اتّهم بالاعتداء على طالباته مرّة، والتحرّش بهنّ مرّة أخرى، وكاد يسجَن ويُفصَل من الجامعة حين اتّهم بالرّشوة وتسريب امتحاناته مرّة أخيرة، ولكن مع محاميه الأريب الذي صدم الأدلّة ببعضها البعض، وأظهر تناقضًا في بعضها أخرجه منها قانونيًّا،

ولكن لم يفلتْ بسمعته في الكلية فكان القرار بحرمانه من وضع أي امتحانات مستقبلية.

وكان على إثر ذلك دعوى الطّلاق التى رفعتها زوجته، وفازت فيها فسلبتْه معظم ما يملك، وأصبح يقتات- فقط- على عائد المحاضرات التي يلقيها، حتّى أتته تلك المخابرة التليفونية في ذات يوم..

سأله محدّثه.. هل هو مستعدّ لمغامرة صغيرة مقابل مائة ألف دولار؟!

كان المبلغ كبيرًا؛ لذا- وبحرص؛ لعلمه أنّ المتربصين به كثيرًا- قال لمحدثه: «فلنلتقِ وجهًا لوجه، ونرى مدى قانونية ذلك».

وقد كان..

التقى مايكل الذي أخذ يشرح له بأنه سيقوم معه بعملية يكفيه منها أن يعلم دوره المحدود فقط؛ سيحصل له على ترشيح وترخيص لدخول قسم التعقيم الخاصّ بمكتبة الفاتيكان لدراسة وتقديم مقترحات بوسائل التعقيم المخصّصة للمخطوطات هناك، وكلّ المطلوب منه في توقيتٍ محدّد بالثانية أن يدخل حمّام هذا القسم، وينزع الكابلين الموصّلين لقابس الكهرباء هناك ويوصلهما ببعضهما البعض ليحدث مشكلة تفصلُ الكهرباء التي ستعود في خلال عَشْر ثوانٍ، يكون في خلالهم قدْ غادر مكانه لكي لا يُكتشف جرمه.

وإذا حدث هذا في التوقيت المحدّد دون مشاكل؛ الشّيك بمائة ألف دولار جاهزٌ له، عملية بسيطة لا مشكلة بها، وعندما سأله

لماذا لا يستعين بصبيّ صغير لفعلها؛ أخبره أنّه الوحيد القادر على الدّخول هناك بسبب تخصّصه، وأنه بعقليّته قادر على التغلّب على أي مشكلة قد تظهر او تتطوّر أثناء الحدث.

ولأنّ الدكتور ديفيد هنري لا يتمتّع بالنزاهة الكافية لم يتردّد أمام إغراء المبلغ الكبير، وصدق حدسُ مايكل فيه عندما ظلّ أسبوعًا كاملًا يبحث عن شخصيته المناسبة، ويدرس الملفّات والسّير الذاتية لأكثر من أستاذ متخصّص في قسم الكيمياء.

وكما توقّع مايكل تمامًا، فقد وضع الرجلُ المناسب في المكان المناسب، فعندما توجّه ديفيد للحمّام المراد، والذي تمّت دراسته بعناية بحيث أنّ انقطاع التيار النّاتج عنه سيكون مؤثرًا على القاعة التي بها مايكل.

إذا به يجدُ القابس لا يمكن كسْره أو انْتزاعه من موضعه، وهذا بالطبع مع انعدام الأدوات التي يمكن التعاملُ بها في ذلك، حتّى الحذاء الذي ينتعله، والذي قد يستخدمُه في كسْر ذلك القابس بكعْبه لم يكن سوى حذاءٍ مطاطيّ أعطوه له بديلًا لحذائه الذي ينتظره بالخارج.

ولأنّ عقليته علميّة وفذّة وقادرة على التصرّف السريع، جاءه الحلّ مباشرة بحيث لا تفشل العملية ولا يضيع منه هذا المبلغ الكبير؛ فقدْ ملأ فردة حذائه بالماء وبمساندة الفردةِ الأخرى، قام بإفراغ الماء داخل القابس الذي ما إن امتلأ بالماء حتى أحدثَ التّوصيل المطلوب بين الطّرفين فنتج عن ذلك انقطاع التيار الكهربي، وبدون أيّ آثار قد يتمّ

تعقّبه من خلالها.. ونالَ المبلغ المراد في أبسط مهمّة ورحلة قدْ يقوم بها.

حاول كثيرًا معرفة ما هو هدف هذه العملية ولم يفلح، كان مايكل صارمًا في عدم البوْح مؤكّدًا عليه أنّه لا يهمّه إلّا الدور الموكل به فقط.

انتعشت حالة ديفيد المادية بعد هذه العملية إلى حين.. ولكنّ نزواته كانت أكبر من الاحتفاظ بهذا المبلغ وقتًا طويلًا؛ فسريعًا ما بدّده ليعود لحياة الجدبِ مرّة أخرى وسط المبالغ الكبيرة المستحقّة عليه شهريًّا؛ ولذا لم يكن أمامه إلا محاولة استغلال تلك العملية التي قام بها ليستنزف مبلغًا أكبر من صاحبها، لم يكنْ يعلمُ إلّا مايكل، فرصَدَ له مراقبةً كبيرة ليعلم ما الذي يخْفيه، وما الذي حصل عليه من مكتبة الفاتيكان، وفشلتْ كلّ محاولاته في المعرفة، ولكن...

خرج بمعلومة أنّ هناك علاقة خفيّة بينه وبين أستاذه مارك أولدوين؛ فلهُمَا جلساتٌ خاصّة في منزل الأخير تتكرّر كثيرًا بمعدّل متقارب.. ولأنّه تعامل مع مايكل وعلم مدى قوّته وصلابته؛ فقد وجدَ الثّغرة التي قد ينفذ منها إليه، إنّه مارك الضّخم المتعرّق والضعيف.

وأمامَ منزل مارك بحديقته الصغيرة، والذي يبتعد عن المنزل المجاور بمسافة غير قليلة؛ رابضَ ديفيد في سيارته في ركن قصيّ، وانتظر حتى خرج مايكل من بيت أستاذه بعد منتصف الليل، وما إنِ اختفى من نهاية الشارع حتى ترجّل ليطرق باب مارك الذي كان وحيدًا بالداخل، في هذا التوقيت سمع صوت خطواتِ مارك البطيئة والتي تدلّ أنّه يتحرك بصعوبة بالغة بسبب أكوام الشّحوم

المثقل بها، وعندما تساءل مَن الطارق قبل أن يفتح بابه؛ جاءه صوتُ ديفيد قائلًا:

– صديق يريدك في أمرٍ خاصّ يتعلّق بمكتبة الفاتيكان السريّة.

ارتعدَ مارك رعدةً لم يرها ديفيد، وقال:

– وما شأني بها؟! أنا أستاذ بقسم المخطوطات في هارفارد وليس في الفاتيكان.

قال ديفيد ببطء:

– جئتك مسالمًا، وإنْ لم نتحاور كصديقين سأذهب مباشرة بما معي، وهو كثيرٌ، إلى الإف بي آي، مع بلاغ سريع لمكتبة الفاتيكان عبر البريد الإلكتروني.

كان ديفيد يقامر على مدى معرفة مارك بما حدث في المكتبة، وأنه سيناله فضول كبيرٌ لمعرفة ما الذي يحمله ويهدّده به، وقد نجحت محاولته، فبعد هنيهةٍ صامتة، فتحَ مارك الباب ليسمح له بالدخول.

دخل ديفيد يستطلع المكانَ الثري بتحفِه وأثاثاته، والمنظّم بشكل خاصّ يليق برجلٍ وحيد مثل مارك، قال ديفيد ببطئه الشهير:

– إذن، فقد كنت أنت المموّل للعملية كلّها.

بحرصٍ شديد أيضًا قال له مارك:

– حتّى الآن لست أدري عمّا تتحدث، فرجاءً توضيح ما الذي لديك وماذا تريد؟

قامرَ ديفيد للمرّة الثانية قائلًا:

- أولًا لقاء شريكك بي مسجّل صوتًا وصورة، وقد ذكر اسمك فيه، فأنا رفيقُه الآخر في العملية.

وقد رفضَ تمامًا إخباري بما جرى، وما الذي حصل عليه من مكتبة الفاتيكان،

وأنا لا أحبّ ذلك، ولهذا أنا هنا، أريد معرفة ما هو الكنز الكبير الذي حصلتم عليه بعمليّتكم هذه؟

جفّف مارك عرقه الغزير وهو يقول:

- هل تريدُ مالًا أكثر؟

قهقَه ديفيد عاليًا وهو يقول:

- رائـع، المصارحة والمكاشفة السّريعة أفضل، لا.. أريد مشاركتكم فيما حصلتم عليه وإلّا سيُراق الدم هنا الليلة وأحصل عليه كلّه وحدي، فليس هناك إلّا معنى واحدٌ لتردّد شريكك عليك، وهو أنّ الكنز مدفون هنا.. فهل تودّ إخباري تطوّعًا أم أستخرجُه بنفسي؟

ازدادت كمية العرق المتصبّبة من مارك، وارتفع عدد نبضات قلبه بشكل كبير، وقال له:

- حسنًا، فلتصاحبني للقبو السفليّ.

ابستم ديفيد بمنتهى الثقة وقال:

- هكذا أفضل.

تقدّمه مارك وهو يشعر بأنّ الدماء تفورُ برأسه والانفعال يكادُ يشلّه، وقلبه يهدّده بالتوقّف.

هبط على الدّرج القصير وما إن وصل إلى القبو حتى وجد ديفيد أنّ ضوءه ما زال مشتعلًا، فتيقّن بالفعل من أن هذا كان مكان اجتماع مارك بتلميذه مايكل قبيْلَ قليل، وأنّه يسير على الدّرب الصحيح.

أشارَ له مارك بالجلوس على أحد الكرسيّين حول المنضدة الصغيرة والمستديرة،

وبكلّ بساطة توجّه ديفيد ليجلس عليه واضعًا ساقًا فوق الأخرى، وفردَ كفّيه قائلًا:

- ها أنا أنتظر.

هزّ مارك رأسَه مطمئنًا بأنه سيأتي بكلّ شيء، وتوجه لأحد الخازنات الخشبية في ركن القبو، وقد اقتربَ من أن يغشى عليه.

كان ديفيد جالسًا مترقّبًا، وقد مال مارك للأمام، وسحب درجًا من أسفل تلك الخازنة الخشبية، ومدّ يده ليخرجَ شيئًا منه، وطال انحناؤه.. ولكن طرقَ سمعَه تكّة معدنيةٌ شهيرة يعرفها جيدًا؛ لذا قبل أن يعتدل مارك في وقفته كان ديفيد قد اندفع جانبًا ملقيًا بنفسه على الأرض لتخطئه الرّصاصة التي أطلقها مارك نحوه فور اعتداله واستدارته بسرعة.. وقبل أن يسدّد مارك رصاصته الثانية كان ديفيد قد قذفه بجسمٍ معدنيّ طالته يداه؛ ليرتطمَ برأسه بقوة، وليصطدم مارك بخزانته الخشبيّة ويهوي أرضًا، ويدُه ضاغطة على الزناد، مطلقًا رصاصة أخرى تجاه السقف، قبل أن يستقرّ ساكنًا هو على الأرض.

ظلّ ديفيد- هنيهَة- مستقرًّا على موضعه راقدًا على الأرض يرقب مارك قبل أن يباغته بأيّ تصرّف مفاجئ.. ولكنّ سكونه التام أنبأه بأنه قد فقد زمام المبادرة

فانتصب واقفًا واقترب منه ببطء، ومدّ يده لينتزع المسدس منه، وجسّ نبضه ليجدَه يتهاوى.. أسقط في يده ماذا يفعل؟!

ولأنّ هدفه الأوّل هو الفوز بذلك الكنز المجهول؛ فلم تعْنِه حياة مارك كثيرًا،

ولأنّ صوت الرصاصة بالقبو من الواضح أنه لم يصل لأحد الجيران؛ فقد أخذ يقلّب محتوى ذلك القبو بحثًا عن كنزه الذي جاء لأجله.

وبعد ما يقرب من نصفِ السّاعة، وجده داخل علبة خشبية أنيقة كأنها مصمّمة له خصيصًا..

كتابٌ عجيب يظهر عليه أنه أثريّ جدًّا، لم يفهم منه أيّ شيء، أو عن أي شيء هو.. أدرك بأنّ هذا هو بغيتُه، فحمله بعلبته الخشبية، واندفعَ مسرعًا إلى سيارته وانطلق بها مسرعًا ليبحث بعد ذلك عن قيمة هذا الكتاب.

* * *

كان ديفيد يجلس متوترًا في أحد مقاهي الجامعة، ولا يعرف ما الذي أسفرت عنه أحداثُ الأمس، وترى هل ماتَ مارك، أم تمّ إنقاذه في اللحظات الأخيرة.

فضّل عدم المتابعة حتى يكون تصرّفه طبيعيًّا في المفاجأة إذا تمّ الشكّ فيه وإن كان هذا مستبعدًا؛ فلا يوجد أدنى رابطٍ بينهما، فقد كانت هذه هي المرّة الأولى التي يلتقيه فيها، كان يترقّب أنْ ينتشر الخبر أمامه، ولكن لم ينطق أحدُهم بأي شيء،

تناول رشفةً من قهوته المركّزة، ومدّ يده ليخرج قدّاحته زاعمًا إشعال سيجارة تخفّف من توتره هذا.

أخذ يقلّب جيوبه بحثًا عنها ولم يجدها، حاول التذكّر أين نسيها وفشل.

وقبل أن يهمّ بإلقاء سيجارته جانبًا، إذا بقدّاحته تشتعل أمامه عبر اليد القوية الممتدة بها.

نظرَ ديفيد بذهولٍ إلى مايكل الذي يريد إشعال سيجارته له بقدّاحته التي فشل في أن يجدها بجيوبه، وابتسمَ الأخير وقال:

– لقد وقعت منْك في مسرح الجريمة الغني ببصماتك في كلّ ركن فيه. ارتعدَ ديفيد رغمًا عنْها، وسقطت السّيجارة من فمِه الذي اتّسع في ذهول، أطفأ مايكل القداحة، وجلس في مواجهتِه، وقال له بمنتهى الصّرامة:

– جريمتك لم يتمّ اكتشافها حتى الآن، فقد تمّت بعد منتصف الليل حتمًا؛ لأني غادرته في هذا التوقيت، والسّاعة الآن هي التاسعة صباحًا، والرّجل ليس له مَن يفتقده، وقد صرف خادمه بالأمس في مصادفة عجيبة، ولوْلا أني اتفقت معه بالمرور عليه صباحًا، وأنّ معي مفتاحَ بابه ما اكتشفت ما حدث، وحظّك السيئ أنّك مميّز

بقداحتك الغبية هذه، والتي وقعت منك هناك.. والآن الخيارُ لك، هل ستعطيني الكتاب الذي سرقته أم بمكالمة سريعة أرسلك إلى غياهب السجون؟

قال ديفيد في خفوت شديد:

- لك ما تريد، ولكن ما الضّامن بعدم بيْعك لي بعد الحصول على الكتاب؟

عادَ مايكل بظهره للخلف، وعقد ذراعيْه على صدره وقال:

- فلتحصلْ أنت على الضّمان الذي تريده وأنا موافق عليه.

كان التوتّر يتمكّن من كلّ فرائص ديفيد، فكلّ أركان الجريمة مكتملة، وبصماتُه بالفعل هناك على المسدس، والجسمُ المعدنى الذي أطاح بمارك وصراعه هذا مع مايكل القوي النافذ أنبأه بأنّ كلّ فرصة في النجاة معدومة.

لقد علم أخيرًا بأنّ حياته في هذه الجامعة- وهذه المدينة- قد انتهت، فمهْما حصل على ضمانات ووعودٍ لا يأمن أن ينتهي مايكل منه بأيّ وسيلة كانت؛ منعًا لأي صداعٍ مستقبلي.

ولذا جاءه الحلّ سريعًا، فرفع رأسه وقال:

- سأعطيك الكتاب ولكن ليس هنا، وإنّما على أرض محايدة أضمنُ فيها عدمَ تتبّعي أو محاولة اقتناصي.

ضاقتْ حدقتا مايكل كثيرًا، وصمتَ قليلًا وقال:

- لك هذا.

ارتدى هشام عبد الحكيم خوذتَه بإحكام، وتأكّد من رصّ الوجبات الساخنة والسّريعة في الصندوق الخلفي لدرّاجته البخارية، واستقلّها بسرعة، وأشعل موتورها ليخرج صوتًا عاليًا يثير الفزع فيمَن يسمعه بشكل مفاجئ مطلقًا الكثير من الأبخرة الكثيفة التي اعتادَ عليها صدره، ولم تعدْ تضايقه أو تسبّب له أي شعور بالاختناق.

وانطلقَ مسرعًا بها ليلحق بتلك السّيدة التي ما زالت تصرخ في رئيسه عبر الهاتف، حتى هذه اللحظة موبّخة إيّاه بكلّ مرادفات التقريع لأنّ ما طلبته قد مرّ أكثر من خمس دقائق ولم يصلها بعد.

دون أن يقصد، وعند مفترق طرق، وبسرعته هذه، داس على بقعة ماء تتوسط الطريق، كان من الصعب تفاديها، ولكن تصادف هذا مع خروج شابّ آخر أنيق يرتدي بذلته الكحلي ورابطة العنق المخطّطة ما بين السماوي والأبيض مع قميصه الدّاكن، ويحمل حقيبة ميّزها على الفور هشام بأنها حقيبة مندوب دعاية إحدى الشركات.

تطايرَ الرّذاذ ليمزّق ويصيب تلك الأناقة في مقتل، واخترق البخار التابع لهشام الكثيرَ من السّباب الذي لا يتناسب أبدًا مع الصورة البهيّة التي يظهر بها الشاب،

هزّ هشام رأسه بأسى، ولم يتمالك نفسه من الابتسام، وقال بصوت خافت:

- أنا والله مقدّر لشعورك الآن، فقد جرّبته، ولكن ما باليدِ

حيلة، ماذا عساي أن أفعل؟! ليسَ لديّ ما أقدّمه لك مقابل هذا الخطأ غير المقصود.

كان مبعثُ شعور هشام بتقدير الموقف أنّه بالفعل كان يعمل من قبل مندوبَ إحدى شركات الدّعاية الإعلانية، كانت شركة تصدر صحيفة متخصصة في نشر الإعلانات المجانية، ولكن تخصّص ما يقارب ثلثَ الصفحة للإعلانات مدفوعة الأجر. وكان دورُه أن يتأنّق بمثل ما كان هذا الشاب المهدورةُ أناقتُه، ويذهب لأصحاب الشركات والعيادات والمعارض، وأحيانًا المتاجر الكبرى ليعرض لهم نموذجًا للإعلان المدفوع الأجر، ومدى فاعليته بسبب سرعة وكبر انتشار الصّحيفة التي تنشر مادتها مجانًا، وتوزّع مجانًا كذلك.

وكيف أنّ هناك فئة مستهدفة يتمّ إرسال الجريدة مباشرة إلى باب منزلها، كثيرًا ما كان يردّ عليه البعض بلباقةٍ بأنّه سيفكر في الموضوع ويردّ عليه، وآخرون يظهرون مدى تأفّههم السريع، وأنه أضاع وقتَهم الثّمين فيما لا يفيد، فكان ينظر إلى مراجل الدّخان والحشيش أمامهم ولا يستطيع النطق بأنّه فعلًا دقائقُ المزاج العالي مِن العيْب عليه أن يشغلها بمثل ما يفعل من تفاهات! وآخرون يرفضون بدبلوماسية، والبعض يطردُه من قبل أن يطأ الباب كأنما هو ذاهب للتسوّل منهم.

ولأنّ راتبه كان يعتمد بشكلٍ رئيسي على عدد الإعلانات التي يجلبها، لم يتحمل العمل في هذه المهنة أكثر من شهرين، وأخذ ينظر

للكروت الملونة الأنيقة المدون عليها اسمه ورقم جوّاله، وتحتها كلمة مندوب دعاية وإعلان لشركة كذا، ودسّ بعضها في جيبه وهو يقول:

- ستنفعنا حتمًا في أيّ أمرٍ مستقبليّ.

ولأنّ مظهره وقتَها كان يمثل أحدَ أهمّ عوامل الاحترام والسّماع الجيد من العميل، فكمْ أنفقَ من جيبه كي يجيدَ هذا المظهر المطلوب، ولم ينلْ طوال الشهرين كاملَ ثمن هذه الملابس التي جلبها.. ولهذا فذلك السّباب الذي وُجّه له من الشاب هو منتهى الأدب واللياقة بما آل إليه؛ فلو كان في موضعه حتمًا ما كان توقّف عند السباب فقط.

أخذ هشام يتذكّر المهن الكثيرة التي حاول العملَ فيها منذ تخرجه من كلية التجارة قسم المحاسبة، منذ عامين.. عمل بكلّ المهن التي قد يعمل بها شابّ في عمره، وللأسف لم يكمل في إحداها أكثرَ من أربعة أشهر، وإحدى اثنتين؛ إمّا يتمّ طرده بسبب مصيبة يتسبّب فيها أو يرتكبها، أوْ يتركها هو عندما يجدُ بأنها تستنزفه والمقابل لا يستحقّ.

وأخيرًا، استقرّ في مهنة توصيل الوجبات السريعة والساخنة هذه للمنازل، كانت العطايا التي ينالها من أصحاب البيوت فوْر توصيله لوجباتهم تمثّل أكثر من خمس أسداسِ راتبه.

وبعيدًا عن مؤهّله والتوبيخ الكثير الذي قد يناله ونظراتِ الاحتقار التي قد تغرقه وأحيانًا نظرات الشفقة؛ فقد تمرّن على أن يتبلّد قليلًا كي يستمرّ هذا الدخل الرّائع.

فوسطَ مشاعر الفشل والانهيار وعدم الثّقة بالنفس، وجد أخيرًا شيئًا يمنحه بعضًا مما يصبو إليه في هذه الدنيا، وهو العائد المادي.

أطفأ موتور دراجته البخارية، وركنها بعناية، وأخذ آخر وجبة لدى صندوقه، وصعد مسرعًا بقفزات تمرّن جيدًا عليها ليدقّ جرس الباب لتفتح له شابّة صغيرة منْهكة، فيقول لها: الوجبة الساخنة والعاجلة من مطعمنا، وذكر اسم المطعم لها، حملت الفتاة الوجبة ومعها فاتورةُ الحساب للداخل، وعادت بعد قليل لتمنحه حسابه، عدّه بعناية لينتظر الزّيادة المرجوّة فيه، ولم يجد فقد كان الحساب دقيقًا لا يزيد جنيهًا.

قلب شفته السّفلى في امتعاض، وهبط مسرعًا كعادته وقد وضع هذه الشّقة ضمن قائمته السوداء؛ إذا خرج بعد ذلك وكانت ضمنَ خطّ سيره ستكون هي آخر مَن يفكّر في الذهاب لها، وقد يتعمّد أن يصلها وقد بردَ مأكلها السّاخن.

انطلق بدراجته وقد كان هذا آخر ما لديه في هذا اليوم، وفي الشارع الرئيسي الذي سيعرج منه على الشّارع الفرعي الكائن به محلّ عمله، ومن بعيد؛ لمحَ في منتصفه إحدى لجان التّفتيش الخاصّة بشرطة المرور.

مدّ يدَه ليتحسّس بطاقات وترخيصات سيره بدراجته البخارية، وتأكّد من إحكام خوذته، وإنْ كان يعلم بأنّه مهْما كان دقيقًا ومتكاملًا في اتخاذ الإجراءات القانونية فلنْ يعجز أمين الشرطة أن يُلبسه تهمةً إن

شاء، فقد يسأله بلزوجة.. أين طفاية الحريق؟ وعندما يخبره بأنّ تعليمات السلامة الخاصّة بالدراجات البخارية لا تشمل ذلك؛ يصرخ فيه أمين الشرطة بعنف قائلًا: وهل أنت مَن سيعلّمني ما هي التعليمات السليمة؟!! وفي الغالب ينتهي الأمر بدسّ عشرة جنيهات في يده، لينطلق في طريقه.

اقترب من اللجنة ولكنْ قبلها بأمتار ليست كثيرة، وبينما هو يهدّئ من سرعته كثيرًا؛ كانت هناك سيارة تسير بمحاذاته وبملامحه الفظّة ووجهه الضخم أشار له قائدُها ليلتفت إليه ويستمع تعليماته

كان صوتُ الدراجة البخارية العالي مع الخوذة التي تحجب الكثير من الأصوات عنه؛ عائقًا لسماعه، ولكنْ بدون سماع وبمجرد رؤية صاحبها كانت هي تعليمات واجبة النّفاذ.

كيف لا!! ومَن يطلق تلك التعليمات هو ناصر عفروتو أكبر بلطجي بالمنطقة، ارتعدت فرائص هشام بمجرّد أن وجد محدّثه هو ناصر عفروتو بجلالةِ قدْره وشأنه؛

ولذا كان يحاول الاستماع جيدًا حتى لا يغضب الأسطورة.

فمَن الذي لا يعرف ناصر عفروتو!! فهو أكبر خارجٍ على القانون، ولكن في ذات الوقت أكبر متعاون مع ممثّليه، تلك التركيبة العجيبة التي تمثل تشابك وتقاطع المصالح المشتركة بينه وبين رجال الشرطة، فعند الانتخابات تكون الحاجة إليه لتنفيذ التعليمات العليا في تقفيلها وتزويرها، وربّما كذلك الاتفاقات السرية بينه وبينهم للإيقاع ببعض المجرمين الصّغار وهم يعلمون علم اليقين أنه

كبيرهم، ولكن.. ما لم يجاهرْ بالجريمة بشكل يفضحهم ويخزيهم ويهزّ صورتهم فقد كانوا يتغاضون عنه، وهو الوحيد الذي لم يطبّق عليه قانون الطوارئ ويتمّ محاسبته بشكل قانوني تامّ.

ولأنّ قانوننا مهترئ ومليء بالثقوب والثغور؛ فقد احترف كيفية الإفلات من تحت طائلته، وهشام يعلم علمَ اليقين بأنّ ربّ عمله يدفع لعفروتو ما يشابه الرّاتب الشهري حتى لا يتعرّض له، فكيف به لا يتوقّف ليستمع إليه؟!

ولأنّه لم يستوضح الكلامَ فقد كان الفعلُ التالي أبلغ ألفَ مرّة من كلّ كلام، فقد كان يمدّ يده له بلفافةٍ كبيرة، ويشير له نحو صندوق دراجته الخلفي.

كانَ الواضح- دون شرحٍ- أنه يطلب منه إخفاءها في صندوقه هذا، ودون أدنى عبقريّة في الاستنتاج حتمًا هي لفافة أي شيء غير مشروع، وفي الغالب لن تكون سوى الحشيش.

زاغتْ عينا هشام وهو بين شقّي الرّحى؛ أمامه لجنةُ تفتيش تابعة للشرطة، وبجواره عفروتو يلبسه حلّة السّجن البراقة!!

اتّسعت عينا عفروتو، وارتفع حاجباه في غضب ليضمّ تعرّجات كثيرة إلى الندبات التي تملأ وجهه حينما تأخّر هشام في مدّ يده التي انطلقت أخيرًا وهو يرتعد، ولأنه قد اقترب كثيرًا فقد أخفاها سريعًا في صندوقه، ولم يكن أمامه سوى أربع سيارات، وكان يدعو في سرّه ألّا يكون أحدهم قد رآه.

تعمّد عفروتو أن يكون خلفَ هشام الذي كان يدعو أن يتوقّف الأمر هذه المرّة على العشرة جنيهات، وأبدى استعدادًا نفسيًّا لأنْ يجعلها عشرينًا.. ولكن لسوء حظّه رفيقه الدائم، لم يكن هذا أمين الشرطة المعتاد على وقوفه في هذه المنطقة، بل لم يكنْ ذلك الضابط الجالس تحت المظلّة، من الواضح أنها لجنةٌ جديدة، أو هُم فريقٌ قادم لمهمّة محدودة، طالبه الأمين بأوراقه فأبرزَها له، فطالبه بفتح صندوقه.. زاغت عينا هشام وقد أدرك أنها النهاية، أنزل حمّالة الدراجة لترتكن عليها، ونزل متباطئًا وهو لا يكاد يشعر بالكون من حوله، ومدّ يده ليفتحه وهو يعلم بأنها فتح لبابِ زنزانته، ولكن...

فجأة، صرخ فيه الأمين انطلق بسرعة من أمامي، نظر هشام ليجد سيارة من وسط الصفّ خلفه تحاول الخروج بعنف، وصدمت السيارة الخلفية له وهو يعود للوراء ليفسح لنفسه مجالَ الخروج، وعندما صاح فيه الجنود بالتوقّف لم يقف، وانطلق مسرعًا في عنف، وفي الاتجاه المخالف عكسَ تيار الشارع، فما كان من اللّجنة إلّا أن أسرعت لمطاردته، والأمين يصرخ في هشام بأن ينطلق، والذي لم يتأخّر في الاستجابة لمطلبه وهو يشعر بالمعجزة التي هبطت عليه من السماء لتنقذه، وانطلق مسرعًا ونسي تمامًا أمر عفروتو الذي ينطلق خلفه، ويطلق بوق سيارته لينبّهه بالتوقّف ليأخذ حاجته منه، وأخيرًا انتبه له ومنحه إيّاها وهو يتصبّب عرقًا وعفروتو يقول له:

- شاطر يا هشام أنا مبسوط منك.

وانطلق بسيارته، وهشام واقف متّسع العينين مشلول الحركة، عفروتو يعرفه بالاسْم وسعيدٌ بنشاطه، ماذا يعني هذا؟!

دعا الله أن يسترها معه، وألّا يرى عفروتو هذا بعد ذلك، وأخيرًا تخلّص من الكثير من المشاعر التي تكبّله، وانطلق ليسلّم آخر مبلغ لديه، ولينطلق عائدًا لمنزله.

* * *

كان هشام يسير الهوينى في شارعِه المقيم به، ومع إضاءته القاتمة والبسيطة، وفي هذا الوقت المتأخّر من الليل الذي خَلا إلّا منه وبعض الكلاب الضّالة التي تعبث بصناديق وأكوام القمامة في أطرافه، كان يحمل لفافةَ شطائره من الفول والطعمية التي سيتناولها كعشاءٍ له، فرغم أنه يعمل كعاملِ توصيل في محلّ الوجبات التي يسيلُ لها لعابه إلّا أنه لم يتذوّقها يومًا لغلوّ ثمنها الذي قد ينتهك راتبه إذا فكّر فيها مرّة.

كان يصفّر بفمه لحنًا غير معلوم، ولكنِ اعتاد عليه، تناهى لسمعه مواءُ قطّ آت من بعيد، كان من الواضح أنه في صراعٍ ما.

هبّت نسمة خفيفة حرّكت الكثير من الأوراق المتناثرة بالشّارع أمامه، وانتعش لها هشام، وقد اقترب من المنزل المقيم بطابقه الرابع في شقة بسيطة هي كلّ ما تركه له والده بعد وفاته حين كان بفرقته الثالثة في كلية التجارة ليتركه رجلًا ومسئولًا عن العائلة الصغيرة المكوّنة منه وأمّه وأخته هبة.

وعندما صعد ببصره إلى أعلى أدركَ مصدرَ هذه النسمة الرقيقة العطرة التي أثارت كلّ شجونه.. إنها هديل.. الملاكُ الصّغير الرقيق والجميل، والتي تعطي لحياته معنى وقيمة.

كما اعتاد حين عودته في كلّ ليلة، الضوءُ القادم من الداخل يلقي بظلّ رأسها على زجاج نافذتها، وهي منغمسة في مذاكرتها، فيقف جانبًا ليطالع هذا الظلّ وقلبُه قد تسارعت دقّاته لتعزف له سيمفونية تصمّ آذانه عن كلّ ما يحيط به وتغشى بصره عن كلّ الحقائق المزرية التي ينغمس فيها في حياته.

كانت تعبثُ بالقلم في جبهتها فحسد القلم لاقترابه كلّ هذه المسافة منها.

وأخيرًا، بعد دقائق خمس، فركتْ عينيها بقبضتيها دلالةَ أنّ الإرهاق قد بلغ منها مبلغَه، وبالفعل لم تلبثْ ثوان حتى قامت لتطفئ إضاءة حجرتها، ويختفي الظلّ الذي ينتظره هشام كلّ ليلة ليعطيه جرعةً من رحيق الحياة، منذ أن قدمت هديل بصحبة أسرتها للإقامةِ بهذه العمارة من عامين، وقد أخذت لبّ هشام.. بحجابها الأنيق المحكم بقوّة حول وجهَها المستدير والأبيض والمشرب دومًا بحُمرة الخجل فهي أبدًا لم ترفع رأسَها لتنظر في عيني محدّثها.. وسيْرها سريع الخطوات يرافقه البَصَر الملتصق بالأرض، ونادرًا ما ترفعه لتستطلعَ ما حولها، ويكون هذا في الغالب عندما تريد عبور الطريق فقط.

ابتكر الكثيرَ من الحيل لمحاولة اجتذاب الحديثِ معها، ولكنها كلّها فشلت، مرّة كان يحثّ الخطى خلفها، ومعه قلم ليسألها هل هذا قلمُها الذي وقع منها، ورغم سرعةِ خطواته التي تؤهّله للحاق بها إلّا أنّه تعثّر في شيء لم ينتبه له، وقام وهو ينفضُ الغبار عن ملابسه ويسبّ سبابًا غامضًا في سرّه، وعندما بحث عنها لم يجدها، فوضع القلم في جيبه وهو يضربُ بقدمه ذلك الجسم الذي تعثّر به، ولسوء حظّه كان حديدًا ثقيلًا فآلمته هذه الضّربة فعضّ بقوّة على شفته السفلى ليكتمَ صرخة الألم، وأخذ يتقافزُ على قدمه الأخرى، ولم ينقطع سبابُه أثناء عودته آملًا في اللحاق بها في المرة التالية.

وعندما أتت هذه المرّة، رغم أنه خلفها بنصف خطوة، وصوتُه عال أثناء مناداته لها إلّا أنّها لم تتوقّف؛ بل زادت سرعتها كأنما تهرب منه، ووصلت إلى محطة ركوبها لسيارات الأجرة، فابستم وقد أدرك أنه سينال المراد الآن.

وتوجّه إليها بعد أن صفّف بيده شعرَه المتطاير من أثرِ هرْولته خلفها، ولكن قبل أنْ ينطق بحرف، وقبل أن تشعرَ بوجوده وصلتِ السّيارة لتنطلق إليها، وهو يقذف بالقلمِ بعيدًا ويقول له: «من الواضح أنك قلم نحس».

وأخيرًا، تغيّب من عمله يومًا لينتظر عودتها من كلية الآداب التي تدرس بها، كان مرابضًا في شرفته، وعندما لمحها قادمةً في أوّل الطريق، قام مسرعًا وهندَمَ مظهره وهبطَ في منتصف السلم، قبل

الطابق الثالث الذي تقيم به، وهو يدرك بأنها حتمًا ستصعدُ عليه بسبب تعطّل المصعد، وهنا لن يمكنها المرور دون تبادل الكلام معه، والذي سيجعله حديثًا في أيّ مجال كان، يسألها عن صحّتها وأسرتها أو الكلية والدراسة.. أيّ شيء، المهمّ أن تشعر بأنّ هذا الكائن مقيمٌ معها في نفس العمارة.. طال انتظارُه وأخذ يتململُ في وقفته، ولم تصعد، فما كان منه إلّا أن هبط مسرعًا وهو ينظر من بئر السّلم عساها تكون قادمة، ولكن وصل للطابق الأرضي ولم تظهرْ، ونظرَ في الطريق ولم يجدها، فارتفع حاجباه دهشة وتساءل أين ذهبت،

وفكّر بأنها ربما تقوم بشراء أيّ شيء من أيّ مكان قبل الوصول.

فحاول الاختباءَ في مدخل العمارة، ولكن لدهشته وجدَ باب المصعد يفتح ويخرج منه بعضُ جيرانه؛ ففهم ما غابَ عنه.

المصعدُ اللعين المتعطّل منذ أشهر، والذي فقد سكان العمارة أملَ استخدامه انتظره في هذا اليوم خصيصًا ليعمل، ولتصعد به هديل، وهو منتظرٌ جودو[1] على السلم، ويظنّ نفسَه عنترة العبسي!

تفلَ على باب المصعد، ولم ينقطع سبابُه الغامض والخافت على حظّه اللعين. وأخيرًا جاءته الفرصة دون ترتيب منه هذه المرّة.. كان عائدًا بدرّاجته البخارية من تسليم إحدى الوجبات، وذهب للخزينة لتسليم ما معه من مبالغ، وإذا به يجدُها واقفة أمامه، وهي

(١) المعنى مقتبسٌ من مسرحية كتبها الكاتب الأيرلندي صمويل بيكيت بعنوان «في انتظار جودو» وتدور أحداثها حول الغائب المنتظَر الذي لا يحضُر.

تمدّ يدها بورقة نقدية كبيرة، هزّ رأسه ليتأكّد بأنّه لا يحلم، ودونَ أن يشعر- وبلا وعي، أو تركيز- هتفَ باسمها قائلًا:

- آنسة هديل!! أهلًا بك.

التفتتْ إليه في دهشة، ونظرتْ له بتمعّن من أعلى لأسفل، ودون أن تنطق أخذت بقيّة نقودها وانطلقت مسرعة ليكتشف أنها برفقة زميلاتٍ لها ينتظرنها بالخارج، وفجاةً أدرك المصيبة، فقد كان مظهرُه كعامل توصيل للوجبات مزرٍ، ومشهدُه بأسوء ما يكون!

لقد ظلّ يحلم بالتحدّث معها مرّة واحدة، وحينما ينجح في ذلك ينسى تمامًا وسط ذروة انفعاله حالَه التي هو عليها، والتي لو تذكّرها لتوارى مسرعًا قبل أن تلحظ وجودَه.

تمعّر وجهه بالألم لذلك، وقد أدرك جيدًا بأنّ كلّ فرصه معها معدومة تمامًا.. فوسطَ أدبها الجمّ وأسلوب معيشتها الذي يوحي بأنّها كما يقال وسط الشباب عنها بأنها ليست منفتحة، ومع ما ظهرَ عليه الآن، فليوفّر كلّ خططه المستقبلية والفاشلة نحوها.

وأصبحت دقّات قلبه المتسارعة والمتصاعدة كلّما رآها- أو رأى ظلها- هي أقصى ما يناله منها، وكمْ حلم بأنه يجالسها؛ يحكي لها النكات وهي تضحك فرحةً وسعيدةً بتواجدِها معه..

رغمَ دفعه للباب بهدوء إلّا أنّ صريره ارتفع ليمزّق سكونَ صالة شقته، أغلقه بسرعةٍ ليُنهي وصلة الإزعاج التي يسبّبها الباب، وأرهف السمعَ ليجد أنّ أمّه وأختَه تغطّان في نوم عميق.

تحسّس طريقه وسطَ ضوء الصّالة الخافت منطلقًا إلى حجرته ليضيء مصباحها، وجالسًا على سريره فتح لفافةَ طعامه، وأخيرًا بعد تناول عشائه البارد بنهَمٍ شديد.

بدأ أنينُ جسده المجهد يناديه طالبًا بعضَ الرّاحة، فأغلق ضوءَ حجرته وأغمض عينيه ليجد وجهها المستدير والمضيء هو البدر الذي يشغل أكبرَ حيّز من ظلام حياته، وجه هديل محبوبته التي لا تشعر به.

* * *

يناير ٢٠١٠، ببرودته ومطره وسوءِ أحواله الجوّية..

ورغمَ ذلك لم يتوقّف هشام عن مزاولة مهْنته في توصيل الوجبات للمنازل، والتي على عكس المعتاد تنشط كلّما ازدادت الحركةُ بالطرق صعوبة، فلا يجد أمامَه إلّا الاندفاع وسط الطّمي برذاذه المتطاير على مَن حوْله، وبالطبع عليه وعلى دراجته التي يظلّ يعاني لتنظيفها من ذلك.

ركَنَ دراجته كالعادة بجوار عامود الإنارة المتعطّل عن العمل في ذلك الشارع شبه المظلم، وحمل وجبةً من صندوقه، ثمّ مدّ يده وتناول شيئًا صغيرًا مركونًا في ركنٍ قصيّ به، وصعد وهو يقرأ أرقام الشّقق بعناية حتى وصل للرّقم المراد، طرق البابَ ليفتح له ذلك الرجل ضخم الجثّة.. مدّ له هشام يده بالوجبة، فأزاحها الرّجل وهو يصدّها قائلًا بصوته الأجش:

- فلتحتفظْ بها لنفسك، أين المعلوم؟

فمدّ هشام له ذلك الشيء الملفوف بعناية، والذي تناوله من

صندوقه، فضّه الرجل من لفافته وتشمّمه، ثمّ ابتسم ابتسامة ليتَه ما فعلها؛ فقد كشفت عن أسنان متعفنة بشكلٍ لا يحدث حتى في القبور.

وأعطى لهشام مبلغًا دون أن يعدّه، فأخذه هشام ووضعه بجيبه، وانطلق مسرعًا كأنّما يخشى البقاء أمام هذا الوحش أكثرَ من هذا؛ فقد يفكّر في التهامِه.

وانتبه لهدية الرجل إليه، هذه الوجبة السّاخنة والرائعة، والتي لم يفكّر كثيرًا قبل ذلك في تناولها، ولأنّه كان في آخر الليل، وقد ألمّ به الجوع، وكذلك من غير المنطقي عودته بإحدى الوجبات، لم يطقْ صبرًا؛ فجلس على إحدى درجات السلّم النظيفة وأخذ يتلذّذ بمطعمه.

وأثناء انغماسه في هذا الطّعام الذي لم يعهده، طرق سمعَه صوتُ صرير كباحات سيارة عنيف، أعقبه صوتُ ارتطام مكتوم، لم يشغلْ باله بما سمع، وانغمس فيما هو فيه، فقد لا يتكرّر ثانية.

ولكن، ودونَ قصدٍ منه توقّفت اللقمة في فمِه وهو يتذكّر بأنه قد أصبح تاجر مخدّرات محترف، فبعد أن حاصره عفروتو، وأجبره على التّعاون معه في توصيل طلبيّات الحشيش ومختلف أنواع المخدّرات لزبائنه في صندوقه الذي لا يلفت الانْتباه، وبمهنته التي تنفى عنه كلّ الشبهات؛ مرّة بالتهديد ومرّة بالإغراء براتب كبير..

كان يفعلها في البداية خوفًا ورعبًا منه، وكم نصحه صديقه مصطفى بإبلاغ الشّرطة عن عفروتو والنجاة من هذا الفعل المحرم، ولكن كان ردّه عليه..

- ومَن ذا الذي يستطيع رفضَ أمر عفروتو، ليس أمامي إلّا إحدى اثنتين، إمّا طاعته بإرادتي أو رغمًا عنّي.. أو التعرّض لطعنة قد تودي بحياتي ليلًا أثناء عودتي، ولو أبلغت عنه الشّرطة من السّهل جدًّا أن يخرج منها هو، وأنْ أتلبّس أنا كلّ أركان الجريمة، فدعْك يا مصطفى من مثاليّتك هذه، ولتحمد الله على أنك لا تقع في هذه المصائب مثلي.

ولكنْ بعد الأجر الذي يعود عليه من توصيل هذه الطلبيات أصبحت شيئًا مستساغًا، بل ربما ينتظرها آملًا في الثواب المرافق لها من عفروتو.

وها هو قد نال وجبةً شهية بجوار أجره لهذه الطلبيّة.. بعد ربْع السّاعة أنهى وجبته بتلذّذ، وقام يمسح فمَه بظهر يده، وانطلق بدراجته البخارية بنور مصباحها الصغير ليبدّد شيئًا من ظلمة هذا الشّارع الكئيب ليعود إلى مقرّ عمله.

كانت هذه آخرَ رحلاته في هذه الليلة، لذا بدأ في تنظيف دراجته ليعود لها في الغد ليجدها لامعةً تنتظره ليجاهد بها يومًا آخر في حياته، وبينما هو يدور حولها ويغسلها، وعندما فتح صندوقها لينظفه من الداخل؛ تخشّبت يده وتجمّد جسده أمام هذه المفأجاة.

* * *

مرّ ديفيد عبر بابِ كشف المعادن والمتفجّرات بمطار القاهرة الدولي، وانتظر وصول حقيبته إليه من المخْرَج المخصّص لها في جهاز فحص الحقائب، كان يتوقّع أن ينتهي الأمر بسرعة كما حدث

في مطار لوجان ببوسطن حيث كانت انطلاقته فلم يعلق أحدهم عمّا تحويه حقائبه هناك، فما بالك ببلد متخلّف مثل مصر!!

ولكنْ لدهشته وجد أحدَ رجال الأمن يتوجّه إليه ويحدثه بإنجليزية طلقة طالبًا منه بأدبٍ مرافقتَه إلى المكتب المجاور قليلًا، تصنّع الدهشة وهو يسأله إن كان هناك أمرٌ خطأ، وبابتسامة واسعة أجابه الرّجل بأنها فقط خمسة دقائق لا غير في إجراء روتيني بسيط، لوّح بيديه ببساطة مصْطنعة كذلك، ورسم على وجهة ابتسامة حاول تحميلَها التّساؤل وعدم الخوف من شيء على نقيض داخله تمامًا..

فترى كيف الحال لو تمّ اكتشاف ما معه الآن، وكانت هناك نشرة موزّعة من الفاتيكان بمواصفاته؟!

وكيف تمكّن هؤلاء البلهاء من كشف وجود جسمٍ غريب بحقيبته التي لا تحوي أيّ شيء صلب أو معدني كما تعمّدً ترتيبها هكذا كي لا تلفت الانتباه في أي مكان؟!

هزّ رأسه مطمئنًا نفسه بأنها حتمًا مساءلة لأيّ شيء آخر تافه يبعد تمامًا عمّا يتوقّع، فالكياسة ألّا يتصرف تصرفًا يكشفه .

دخل المكتب ليجدَ حقيبته مغلقة بعناية أمام فريق تفتيش مكوّن من فردين، وهنا عاجله الضابط مباشرة قائلًا:

– لقد تمّ اكتشاف جسم غريب داخل حقيبتك لم نفلحْ في تحديد ماهيته أثناء عبورها بجهاز الكشف المخصّص لذلك، ونسألك الآن بفتحها كي نفحصها بالعين المجرّدة أمامك.

توقّف ديفيد قليلًا صامتًا وقد اختفت ابتسامتُه المصطنعة، ويدور بداخله ألف تساؤل عن كيفية الإفلات من هذا الموقف.. لقد كان اختياره لمصر دون جميع الدّول لأسباب كثيرة؛ منْها أنها تعدّ الآن مستعمرة أمريكية بامتياز، ولكن بالمفهوم العصري للاحتلال الثقافي والسياسي دون أيّ تدخل عسكري، فالأمريكي يدخل هذا البلد سيدًا يحترمه الجميع ويبجّله ويخشاه ويقيم له ألف حسابٍ قبل مجرد مخاطبته، لهذا وبعد انتهاء أمْره في ولايته وجدَ أنّ أمر السفر إليها والاستقرار بها إلى حين سيكون مناسبًا جدًّا.

ففي مصر وبالجامعات الخاصّة الجديدة، يمكنه العمل سريعًا، وبراتب يضاهي خمسة أضعاف راتب المصري بها على الأقلّ لمجرّد أن جنسيته أمريكية دون النظر لأي مؤهلات.

وهناك تتباهى الإدارةُ والطلاب كذلك بأنّ هيئة تدريسهم بها أمريكان ويدفعون مقابلَ هذا التباهي ثمنًا باهظًا يستقرّ في جيبه.

سيكون أمرُ تواجدِ عبقريّ مثله من جامعة عريقة بحجم هارفرد للتدريس لهؤلاء القردة أشبه تمامًا بالمجيء ببتهوفن ليعمل زمّارًا ضمن فرقة موسيقية عتيقة في أحد الأفراح الشعبية بحارة ضيقة بإحدى العشوائيات!

ولكن بسنْتاتٍ قليلة يمكنه العيش ملكًا في هذا البلد الفقير المتخلّف، وسيكون هذا إلى حين حتى تمرّ سنوات قليلة يعود بعدها إلى ولاية أخرى لا يمكن ملاحقته فيها قضائيًّا، المهمّ أن يكون

مايكل قد نسيه تمامًا، فبعد أن هدأت أعصابه قليلًا من المواجهة المباشرة مع مايكل خطّط للهروب منه دون صراع.

كان اتّفاقهما هو أن يتمّ شحنُ الكتاب في طردٍ إلى لندن، ولكن باسم مايكل بحيث يذهب هو لتسلّمه من هناك بنفسه.

أعطاه ديفيد نصف الإيصال الذي يحوي بيانات المُرسل والمكتب المرسل إليه، واحتفظ بالقطعةِ التي بها الكود السّري لتسلّم هذا الطرد، واتّفقا على إرسال هذا الكود بعدَ أنْ يغادر ديفيد بوسطن تمامًا، وبعد أن اطمئنّ مايكل إلى استحالة استرداد ديفيد للكتاب؛ سمح له بالسفر إلى باريس منتظرًا منه الكود السّري كما اتّفقا، وطال انتظاره وخابَ أمله في حين كان ديفيد يبتسم بثقةٍ وانتصار، وهو مستقرّ على كرسيه منتظرًا تغْيير خطّ سفره أثناء التّرانزيت في مطار باكو ليستقلّ هناك الرّحلة المتجهة للقاهرة، والتي قام بالحجز فيها عبر الإنترنت، وكنزه الثمين مستقرّ بحقيبته في بطن الطائرة، ولم يتمّ إرساله إلى لندن أو أي مكان آخر.

فبعد أن أتمّ الأمر وقام بإنهاء إجراءات إرساله وتسلّم الإيصال، تساءل فجأة إن كان بإمكانه التّراجع عن الإرسال، ولا يريد استردادَ القيمة التي دفعها لأجل ذلك.

وبكلّ بساطة، هزّ الموظف المختصّ كتفه، وقال له: «لك ما تشاء»، وقام بإلغاء كلّ الإجراءات التي اتّخذها على حاسوبه قائلًا له:

- الإيصال الذي معك الآن لا قيمة له، فقد تمّ إلغاء كلّ الإجراءات ومحْو الكود السرّي به، وقيمته تكمنُ فقط في هذا الكود.

ابتسمَ ديفيد بسعادة ومنحه بقشيشًا رائعًا على غير المعتاد، وقال له: «لا عليك»، فقد كان هذا أقصى ما يتمنّاه لتنجح خطته.

والآن، وبعد كلّ ذلك، خطّته مهدّدة بالفشل أمام هؤلاء البدو رعاة الإبل في مطار القاهرة!!

ابتلع ريقَه وضمّ قبضته كما اعتاد حينما يحاول تماسك أعصابه وطمأنَ نفسَه بأنهم أبدًا لن يدْركوا قيمة ما معه، ويمكن بسهولة جدًّا خداعهم؛ لهذا توجّه لحقيبته وهو يظهر التأفّف قائلًا:

- هذا هو المطار الثّالث الذي أمر به في رحلتي، وأنتم أوّل مَن يطالبني بذلك، فأرجو الانتهاء سريعًا حتى لا أتّخذ أي إجراء قانوني ضدّكم.

ظهرَ الغيظ على وجه الضّابط من هذا الأسلوب المتعجرف الذي اعتاد عليه من الأمريكان خصيصًا، ولكن ماذا يفعل وكلّ الظروف تمنحهم هذا الحقّ، فبمكاملة واحدة منهم للسّفارة الأمريكية تنقلب الدنيا لأجلهم.

ولهذا أخذَ في تقليب محتوى الحقيبة بعناية وهو يدعو في سرّه أن يجد أي ممنوعات تمنحه الحقّ في توقيف هذا الرجل، أو إعادته إلى بلاده على نفس الطائرة القادم بها.. ولكن كانت حقيبته نظيفة تمامًا، وأخيرًا وجد الصّندوق الخشبي الصغير والأنيق، والذي كان سببًا في هذا التفتيش.

الصّندوق الخشبي وحدَه لا يعطي هذا الظلّ على الجهاز، إذا محتواه هو الذي يجب فحصُه الآن، حمل الصّندوق بعناية إلى خارج الحقيبة، ونظر إلى وجه ديفيد ولم يغبْ عن عينيه الفاحصة الماهرة شحوبه البسيط، فابتسم بثقة وقال له:

- هل تسمح لي بفتح الصندوق؟

لم يستطعْ ديفيد النطق، وفشل في كبح جماح مشاعره المستعرة بداخله، لذا آثر الصّمت وأشار إليه بأن يفعل.. رفع الضابط غطاءَ الصندوق وهو يتوقّع أي شيء غير قانوني، ولكن لدهشته وجد كتابًا قديمًا، مظهرُه عجيب، لم يره من قبل، عقد حاجبيه بتساؤل، فأيّ كتاب لم يكن كذلك ليعطي هذا الظلّ، فما مكوّناته؟

أخرج الكتاب بعنايةٍ شديدة، ومن ملمسه الغريب شعرَ بالفعل أنه كتاب غير عادي أبدًا.. فنظر نحو ديفيد نظرةً متسائلة كانت كافية تمامًا دون سؤال ليجيب ديفيد قائلًا:

- إنّه كتابٌ أثري قديم، عمرُه أكثر من ألفِ عام، وهو من أشيائي الخاصّة هل لديكم قوانين تمنع ذلك؟

توقّف الضابط قليلًا، وقد أيقظه التساؤل هذا، بالفعل لا توجد قوانين تمنع اقتناء الكتب الأثرية القديمة، أو حتى تطالب بإثبات ملكيّتها، وبالتالي لا يمكنه مساءلة أي فرد معه مثل هذا الكتاب، فما بالك بأمريكي!

ولكن، كإجراء أمنيّ سيقوم بأمر قد يكشفُ له فيما بعد ما سبب

هذا الشحوب الذي اعترى ديفيد عندما ظهر الكتاب، فابتسمَ لديفيد قائلًا:

- بالطّبع لا، ولكنْ هل يمكنني أخذ صور تذكارية لهذا الكتاب، فمِن النادر رؤية كتاب بمثل عمره.

ارتختْ جميع أعصاب ديفيد المشدودة، وعادت إليه الثقة الزائدة، فكما توقّع بأن هؤلاء الأغبياء لن يمكنهم أبدًا التّعامل معه، لهذا وبكلّ بساطة قال له: «كما تشاء».

فقام الضّابط بضبط كاميرته على أعلى جودةٍ لها، وتصوير الكتاب من الخارج وبعض الصفحات من الداخل، وبعد قليل كان ديفيد مستقرًّا بإحدي السيارات الليموزين التي تنطلق به مسرعة إلى أحد أكبر فنادق القاهرة، وزهْو الانتصار يتمكّن من كلّ فرائصه.

* * *

جنّ جنون مايكل عندما اكتشف الخدعة، ولأنّ الأمر يُعدّ تحديًا له لم يغمض له طرفٌ، وشحذ كلّ همّته وجهده للوصول إلى هذا الكتاب مهْما كلّفه الأمر.

اتّصل بإدارة مطار باريس ليستعلمَ عن وصول قريبه ديفيد هنري، ليخبروه بأنه لم يصلْ إليهم على أيّ رحلة قادمة خلال الأسبوع الماضي، فما كان منه إلّا التوجّه إلى مطار لوجان ليستعلمَ عن سفر ديفيد وعلى أي رحلة كانت، وبعد جهدٍ كبير وكثيرٍ من

البقشيش توصّل إلى رقم الرّحلة والشركة التي استقلّ طائرتها، وبمساءلتهم عن قريبه الذي كان من المفترض أن يصلَ باريس منذ أسبوع على متْن تلك الرّحلة ولم يحدث، فأين هو الآن؟!

وبمراجعة خطّ سير وحركة الرّحلة كشفوا له بأنه غادر الرّحلة في مطار كابو، ولم يستكملْ مسيرته معهم إلى باريس.

سافرَ خصيصًا إلى مطار كابو ليستعلمَ منهم عن قريبه ديفيد الذي هبط منذ أسبوعٍ كامل هنا، وهل استقلّ طائرة أخرى أم هو متواجد الآن بالمدينة.. ليكتشف رحلته إلى القاهرة.

والآن، وبعد أن علمَ بمستقرّ هذا الوغد، لن يمكنه أبدًا أن يقوم بمثل ما قام في بوسطن وكابو من مساءلة في مطار القاهرة، ففي دول العالم الثالث الذين يعدونهم أعداءً ستكون تلك المساءلة مجالًا كبيرًا لنشر الشّبهات حوله، وربّما بإجراء غبي قد ينبهون ديفيد أنّ هناك مَن يتتبّعه.

ولعلمه بالإجراءات الأمنيّة الكثيفة التي تتّخذ لأجلهم من حكومتهم عند سفرهم إلى تلك الدول، كان أفضل مكانٍ يتّجه إليه هي السّفارة الأمريكية، فحتمًا سيكونُ لديهم الكثير من البيانات عنه.

وقد كان، فبإخبارهم أنه فقدَ الاتّصال به منذ تسع أيام، ويريد التواصل معه، منَحوه رقمَ جوّاله المصري ومحلّ إقامته في أحد الفنادق الكبرى بالقاهرة.. توجّه مباشرةً إلى ذلك الفندق، ومع بقشيش كافٍ توصّل إلى المعلومة التي خيبت كثيرًا من آماله، فقد

غادر ديفيد الفندقَ منذ ثلاثة أيام فقط! ولم يعدْ معه إلّا رقم جوّاله، تفكّر كثيرا ماذا يفعل به، وكيف يتصرّف تصرفًا لا يفقده خيوط اللعبة أكثر من هذا..

وأخيرًا، وبعد يومين من مدارسة الأمر جيدًا، واختيار ذلك الشّارع الضيق المظلم ليلًا بعد تعطّل مصابيحه وإهمال إصلاحها؛ اتّصل بديفيد الذي ردّ عليه ليجد مايكل يقول له مباشرة:

– أهلًا ديفيد، اكتب هذا العنوان لديك. (وأمْلاه عنوانَ ذلك الشارع، وقال له) أنتظرُك هناك بعد ساعة واحدة، هي أقصى ما يمكن أن يستغرقك الطّريق للوصول إليه، وثقْ أنك إن لم تأتِ برفقة الكتاب، لن أساومك مجدّدًا؛ فالقتلُ هو مصيرُك هذه المرّة.

وأغلق الهاتفَ دون أن ينتظر منه ردًّا، وبالفعل كان ديفيد يقف مشدوهًا ذاهلًا، كيف توصّل مايكل إليه بهذه السرعة؟!!

الثقةُ التي يتحدّث بها توحي بالفعل بقدرته على تنفيذ تهديده بلا تردّد، ووسط ارتباكه وانفعاله وعدم تركيزه وضيق الوقت، وجدَ أنّ التخلّص من هذا الكتاب الملعون، ومنحه لمايكل أفضل الحلول، فمهْما كانت قيمته لن ينفعه أبدًا وهو مستقرّ داخل تابوت خشبي أسفل الأرض، فأخذ الكتاب وانطلق مسرعًا إلى ذلك العنوان.

وصل إلى أوّل الشّارع في خلال نصف السّاعة فقط، فآثر الهبوط والسير على قدميه في تلك الظّلمة حتى لا يرصده مايكل عبْر سيارة الأجرة التي يستقلها.

سار قليلًا، وانتظر بجانب تلك الدّراجة البخارية المرتكنة على عمود إنارة مظلم كعادة هذا البلد الكئيب، وأخذ يدرس الشّارع والمداخل والمخارج لكلّ العقارات التي به لكي يستخدمَها في خطّة جانبية إذا تعرض مع مايكل لأيّ مخاطر، فهذا الشارع المظلم يوحي بأنه يكيد له شرًّا مستطيرًا..

وبعد عشْر دقائق قضاها في موضعه، نظر نحو صندوق تلك الدراجة التي حتمًا تخصّ أحد هؤلاء المقيمين في ذلك المبنى، فلو كان أحد عمّال توصيل الطلبات فلن يستغرقَ كلّ ذلك الوقت في الصعود والهبوط إليها.

ولذا، ولكي يكون معه كارت مساومة؛ فتح الصندوق الخلفيّ لها، وأخفى الكتاب بداخله وهو يظنّ بأنه بعد دقائق قليلة سيعود لالتقاطه أو إرسال مايكل ليفعل.

وبعد أن هيّأ نفسَه لملاقاة غريمه، ونظر لساعته، ووجد أنّ العقارب قد اقتربت جدًّا من الموعد المحدّد تنفّس بعمق، وضغط قبضته بقوّة ليسيطر على أعصابه، وانطلقَ بمنتصف الطريق ليغوص في الطّمي الناتج عن أثر المطر بقدمية ذاهبًا إلى البِناية التي حدّدها له مايكل، ولكن بعد أمتار قليلة وبعد أن ظهر ظلّه واضحًا تحت ضوء القمر الخافت.. فجأة، أضاءت مصابيحُ إحدى السيارات المرتكنة جانبًا، وانطلقت مسرعةً بشكل مفاجئ لتصدم ديفيد متعمّدة بقوة، ولكن باحتراف كافٍ لإصابته وإعاقته عن الحركة فقط دون قتل.

وضغطَ مايكل مكابح سيارته التي استأجرها بقوّة لتنزلق مسافة غير قليلة فوق طمي الرصيف المبتل، وأخيرًا توقّفت ليهبط مسرعًا إلى ديفيد المستقرّ ساكنًا على الأرض، وقد تلوّث تمامًا بذلك الطمي، فحمله غير عابئ بهذا التلوث، وفي ثوان معدودة ألقاه في حقيبة سيارته الخلفية مكملًا مسيرته بسيارته مسرعًا، وقد قرّر أن يحتفظ بديفيد ويهدّده مباشرة بمسدس مسلّط على رأسه بعد تقييده إلى أحد المقاعد في تلك الشقة الصغيرة النائية التي استأجرها خصيصًا لذلك، والتي عندما وصلَ إليها حمل ديفيد وصعدَ به إليها، وبداخلها أجلس ضحيته، وبدأ في اكتشاف ما به من إصابات يمكن معالجتها مع إفاقته ليعترف له بموضع الكتاب الذي لم يره معه على ضوء القمر الخافت هناك في منتصق الطريق كما وعده.

فقد كانت خطّته تعتمد على إصابة ديفيد وانتزاع الكتاب منه والهرب به، ولن يجرؤ الأخير على اتهامه أو ملاحقته.. ولكن تغيّرت إلى التهديد المباشر بالقتل بعد أن وجده وحيدًا دون كنزه المطلوب، ووصلت دهشته وخيبته للذروة، فعلى عكس المتوقّع.. كان ديفيد جثةً هامدة!!

* * *

كان هشام يتناول عشاءه المكوّن- كالعادة- من شطائر الفول والطعمية التي يستطيع استبدالها.. كان مستلقيًا على بطنه على سريره

مفتوحًا أمامه كتاب الأقدار الذي أخذ يقلّب صفحاته بدهشة، وتتناثر منه شذرات من طعامه فوق صفحاتِ الكتاب التي قلبها دون أن يبالي بما يتساقط منه، فمنذ غادر المطعم الذي يعمل به وهو في حيرةٍ ودهشة كبيرين، آثر ألّا يخبر أحدًا بما وجده في صندوق درّاجته البخارية من رفاق العمل وحمله معه ليجلس أمامه ساعة كاملة محاولًا سبر أغواره.

العلبةُ الخشبية أنيقة ودقيقة جدًّا بقفلها المحكم الذي يدار بيدٍ صغيرة تشبه المزلاج نحو اليسار، ودون مفاتيح أو أقفال توضع عليه، ولكن من الواضح أنها حديثة... على نقيض الكتاب الذي يظهر عليه قدمه الشديد، ولكن رغم هذا القدم كانت صفحاتُه قويّة بما يوحي إليه بأنها ربما تقاوم التّمزيق أو الحرق أو محاولات التخلص من الكتاب، راقت له هذه الفكرة وقد لاحتْ له قصص الخيال العلمي والأساطير التي كان يعشقها قبل أن ينغمس في دوّامة العمل، ويشعر بمعنى السعي لأجل الرّزق.. حتى أنّه فكّر في محاولة فعل ذلك لاختباره وهل سيتمزّق أو يقاوم الحرق من عدمه.

ولكن فضّل مطالعته أولًا، ربما يجد بين ثنايا صفحاته ما يكشف له عن طبيعته..

الكتاب كان مليئًا بالرموز الكثيرة والغريبة، وغني باللغة والأرقام اليونانية، وبه رسومٌ عجيبة ميّز رسم الصليب في أغلبها.

وفي النّهاية، وجد صفحتين فقط بها حروفٌ عربية كأنها مرسومة

وليست مكتوبة حاول جاهدًا قراءتها، ولكن الخطّ والشكل المكتوبة به كانت عسيرةً عليه فلم ينجح.

قامَ بتقليب بقية الصفحات الفارغة، ولم يجد بأحدها حرفًا واحدًا، فأخذ يقلّب العلبة الخشبية عساه يجد خريطة أو دليلًا يشرح له شيئًا، ولم يفلح؛ فما كان منه إلّا أنْ قام متثائبًا لينال قسطًا من النوم المليء بالأحلام العجيبة عن جني وساحر وملك ذي لحيةٍ بيضاء ممتدّة حتى ركبتيه، ويحمل صولجانًا مرصعًا بكثير من الجواهر والأحجار الثمينة، كلّ هؤلاء يتحدثون معه بلغات عجيبة وهو فاغرٌ فاه أمامَهم محاولًا فهْمَ أي شيء، أو حتى محاولة الردّ عليهم، ولكنّ لسانه كان معقودًا داخل فمِه، ولم يفلح.

واستيقظ أخيرًا وهو يهزّ رأسه من أثر كلّ تلك الأحلام العجيبة، وتذكّر الكتاب فقام لأمّه ليجدها بالمطبخ كالعادة في مثل هذا التوقيت تعدّ إفطارًا لهما، وتجهّز الشّطائر التي ستأخذها أخته هبة قبل ذهابها لمدرستها الثانوية.. وأخبرها بأنه متكاسل، وسيأخذ شطائره في حجرته، والتي انتهى منها منتهيًا كذلك من تقليب الكتاب للمرّة الخامسة دون أن يفلح في فهم شيء.

ولكن ما غلب على ذهنه أنه ربما كتاب متعلّق بالديانة المسيحية، قد يكون إنجيلًا أثريًّا، ولكن ما الذي جاء به إلى صندوق درّاجته؟!!

حاول البحث كثيرًا، ولم يجد إجابة منطقية، ولكن وصل لحلّ وسط.

مينا زكريا المقيمُ معه بالطابق الرابع في نفس العمارة، والذي

يعمل نهارًا في مكتب بريد المعادي، ومساءً في صيدلية د. سليمان؛ هو الوحيدُ القادر على فكّ طلاسم هذا الكتاب وإخباره بحقيقته، وهل هو إنجيل أو كتاب دين مسيحي أم لا!

ولم يطقْ صبرًا، فأخذ الكتاب داخل علبته الخاصّة، وانطلق إلى الشقة التي يواجه بابها بابَ شقتهم عساه أن يلحق بمينا قبل أن يذهب لعمله.

فتحت له أمّه التي نظرت إليه متعجّبة دون أن تنطق، فقال لها هشام مرتبكًا:

- صباح الخير يا مدام أنيتا، هل مينا متواجد أم خرج لعمله؟

تفحّصته أنيتا مليًّا وهي تتساءل عن سرّ هذه الزيارة المبكرة، ولم يغبْ عن نظرها ذلك الصندوق الخشبي، والذي يضمّه إلى جانبه وقالت له:

- ما زال يتناول فطوره، تفضّل معنا.

وبلا تردّد دخل هشام كأنما يجيب الدّعوة للإفطار، وما إن دخل حتى وجد مينا منهمكًا في تناول فطوره، وأمامه كرسي أمّه شاغرًا، والتي حتمًا كانت تشاركه فيه.

خرج صوتُه مكتومًا وهو يلوك الطعام في فمه قائلًا:

- ليست عادتك يا هشام، تفضّل بيض بالبسطرمة ستأكل أصابعك معها.

فقال له هشام بلا تردّد:

- لا يا عمّ، قد تكون البسطرمة بلحم الخنازير، شكرًا.

كان صوتُ مينا أوضح هذه المرّة بعد أن فرغ فمه من طعامه، وهو يقول له:

- أنت حر، فالخاسرُ هو أنت، هات من الآخر ماذا تريد؟

نظر هشام نحو أنيتا التي استقرّت على كرسيها لتتناول إفطارها كذلك، وقال له وهو يستقرّ على كرسي مماثل دون مشاركة في الطعام:

- فلتنتهي من طعامك أولًا حتى تكون معي بكامل تركيزك.

فهمَ مينا أنه لا يريد الحديث أمام أمّه، التي أدركت المعنى كذلك ولم تلقِ له بالًا، وقال له:

- المهمّ أن تنجز وتوجز فيما تطلب حتى لا أتأخّر على عملي.

فقال له هشام مستخفًّا به:

- يعني وراك الدّيوان يا خيّ!! هل تريد إفهامي أنك لا تتأخّر أبدًا.

قام مينا وهو يمسح يديه في فوطته، وما زال يلوك بقيّة طعامه وهو يقول له:

- تعال يا خفيف لنرى ماذا تريد.

وفي حجرته الموصدة بإحكام، أخرج له هشام الكتاب دون أن يقصّ عليه القصص وسأله قائلًا:

- هل هذا الكتاب إنجيل؟

أخذ مينا يقلّب صفحات الكتاب بدهشة، وأخيرًا قال له:

- أنا لا أفهم حرفًا مما فيه، وبالتالي لا أعرف ماهيته.

قال له هشام بحسرة:

- نوّرت المحكمة، شكرًا يا عمّ المهمّ، هيّا إلى عملك.

أمسك مينا بالكتاب بقوة وهو يقول له:

- لا تقلق، دعْه معي حتى يوم الأحـد، وسوف أخبرك بحقيقته، سآخذه معي إلى كنيستنا فأبونا هناك حتمًا قد درس اليونانية أو بعض اللغات الميتة في اللّاهوت، وسنعلم منه طبيعة هذا الكتاب، ما رأيك؟

صمتَ هشام قليلًا، ووجد أنه حلّ منطقي، فوضع أصبعه أمام فمه منبّهًا وهو يقول له:

- والله لو ضاع منك الكتاب أو أصابه ضرر، نهايتك ستكون سوداء، وعلى يدي، أنا تاركه كأمانة لديك.

قال له مينا:

- عيب عليك، وهل أنا صاحب تلك الألاعيب؟!!

قال له هشام:

- والله ما أخاف إلّا منك، تفضّل.

وانطلق هشام كذلك يحاول شغل نفسه بأي شيء حتى تحين الثانية عشرة ظهرًا، موعد عمله هو، وخطر بباله صديقه عمر خريج كلية الآداب قسم عبري، كيف لم يتذكّره أولًا!!

فاتّصل به مباشرة ليجده في عمله، والذي كالعادة لا علاقة له بمؤهله، فقد كان يعمل في شركة اتصالات متخصّصة في الشبكات المرتبطة بالأقمار

الصناعية سواء خطوط هاتفية أو معلوماتية، وسأله قائلًا:

- ولد يا عمر، هل تتذكّر أيام دراستك جيدًا؟

ردّ عليه عمر قائلًا:

- وهل هذه أيامٌ تنسى؟!! ماذا حدث هل تذكّرت فجأة سلفة أخذتها منك ولم أردّها حتى الآن؟.

- لا يا ناصح، أريدك أن تتذكّر هل درست اليونانية بجوار العبرية وهل تذكر شيئًا من العبرية التي درستها؟

أتاه صوتُ عمر مستهزئًا وهو يقول:

- من الواضح أنك رائق البال، وتعاني من الفراغ، إذا كنت تذكر شيئًا من دراستك؛ فأنا كذلك.

قال له هشام جديًّا:

- أنا فعلًا بحاجة لمن يفهم في تلك اللغات.

شعر عمر بجدية هشام فقال له:

- ماذا حدث؟ هل لديك رسالة غرامية بهذه اللغات تريد فكّ طلاسمها؟

أدركَ هشام عدمَ جدوى مناقشته مع عمر؛ فآثر أن يؤجّل دوره حتى يعود له مينا بالخبر، فقد يكون معه كامل التفاصيل فقال له:

- لا عليك، سأعلمك بكلّ شيء حين نلتقي.

* * *

وضع مينا الكتاب أمام هشام وهو يقول له:

- أبونا يقول لك تخلص من هذا الكتاب بالحرق، فهو ليس بإنجيل ولا أي كتابٍ ديني، ومن الواضح أنه متعلّق بالسحر الأسود، فكلّ الطلاسم التي به توحي بذلك.

خاب أمل هشام عندما علم بفشل الرجل في معرفة هوية الكتاب، وأن ما يقوله ليس سوى مجرّد استنتاجات، فقال لمينا مستهزئًا:

- وأنا الذي كنت أظنك ستأتي بالذئب من ذيله؟!!

تركه مينا منصرفًا وهو يقول له:

- لا ذئب ولا كلب، أنا نقلت لك النصيحة وأنت حرّ، وثقْ أنه عند اشتعال حجرتك بك قريبًا لن تضعفني صرخاتك وقتها، ولن أهرع لنجدتك، لأني حذرتك قبلها.

ظلّ هشام أمام كتابه صامتًا واجمًا، ولأنه قد شغل جزءًا كبيرًا من فراغه النفسي، كان يمني نفسَه بأن هذا الكتاب يحمل سرًّا كبيرًا، لا بدّ من الوصول إليه.. ولهذا قرّر الصّراع حتى النهاية.

فحمله، وذهب به إلى عمر الذي أيضًا شعر بملمس الكتاب العجيب، وقال له:

- مِن أين أتيت به؟

قال له هشام بضجر:

- دعْك من مصدره، وحاول قراءة حرفٍ واحد مما به، وأعلمني بمعناه، وكالعادة فشلَ عمر فيما فشل فيه الأسبقون.

فقال له هشام:

- هل تذكر أوائل دفعتك المميزين في اللغة اليونانية، وهل يمكن الوصول لأحدهم؟

وبرقتْ عينا عمر لهذا الحلّ وقد أثاره لغزُ هذا الكتاب الغامض فطلب من هشام أن يترك الكتاب له، وسوف يأتيه بالخبر اليقين، ولكنْ بعد خمسة أيام وعشرة اتّصالات هاتفية من هشام، عاد له به ليقول له:

- هناك لغة يونانية بالفعل، وعبرية وعربية بالخط الأندلسي القديم كذلك، ولكنْ بخطّ اليد، والذي يعتمد على مهارةِ كاتبه في رسم الحروف، وكما أننا لا نستطيع قراءة خطّك العربي الشبية بنبش الدجاج، لم نستطع قراءة جملة واحدة مفيدة إلّا جُملة (بسم الله الرحمن الرحيم) العربية.

هزّ هشام رأسه قائلًا:

- شكرًا جزيلًا، نـوّرت المحكمة أنت كذلك، لقد نفد رصيدكم، ويمكنك الاتّصال في وقت آخر.

قال له عمر في حين انصرافه كذلك:

- نصيحتي لك أنْ تذهب لتبيعه لأحدِ باعة الكتب بسور الأزبكية فقد تتحصّل منه على سعر جيد هناك.

وانصرف عمر كذلك ليترك هشام في حيرته المستمرة.. ووجد أن أقرب الكلام للمنطق هو أنّ هذا الكتاب مرتبط بالسحر، وبرقت

عيناه وقد وجد الحلّ الذي يكشف ذلك!!

ذهب إلى أمّه، وقال لها:

- أمّي، أين مصحفك الكبير؟

ارتسمت بسمةٌ كبيرة سعيدة على وجه أمّه، وهي تقول له:

- ربّنا يهديك يا ابني، وينير لك طريقك، هذا أفضل شيء تفعله، أن تصلّي وتقرأ القرآن وتقترب من الله.

هرشَ هشام مؤخّرة رأسه، وحاجباه مرتفعان قليلًا وهو يقول لأمّه، بصوت ممزوج بنبرة السخرية الدفينة:

- لا حرمني الله يا أمّي من دعواتك.

وأخذ المصحف وذهب لحجرته، وفتح كتابه الغامض على مصراعيه، وأخذ يقرأ القرآن أمامه؛ عسى أن يخرج الجني المختبئ بين هذه الصفحات، ولخيبته لم يحدث شيء.. تذكّر أنه يقرأ بلا وضوء ولا حتى صلاة.

الجمعة باقٍ عليها يومان، وهي الصلاة الوحيدة التي يؤديها، ولكنّ الكتاب يستحقّ منه أن يقوم ليصلي الصبح حتى لو كانت الساعة هي العاشرة صباحًا، فقام ليتوضّأ وعاد لحجرته وقطراتُ الماء تتساقط منه مارًّا بالصّالة التي تجلس أمّه فيها منشغلة في تقطيع البطاطس لإعداد الغداء، وعندما رأته بوضوئه ارتفع صوتها قائلًا:

- ربّنا ينوّر قلبك بالإيمان والصلاة يا ربّ.

ارتفع حاجبا هشام بنفس التعبير وقال لها:

- نعم يا أمّي أكملي هذه الدعوات الطيبة.

ووضع هشام الكتاب أمام سجادته مفتوحًا على مصراعيه، فقد لا يتحمّل الجني صلاته، ويخرج في منتصفها مصاحبًا لبخاره الكثيف ليقول له:

- شبيك لبيك، عبدك بين إيديك، اسأل تُطعْ.

وتمنّى هشام ألّا يكون هناك عددٌ محدودٌ من الأمنيات حتى لا يحتار في أيّها الأولى،

وفي أقلّ من دقيقة ونصف كان قد انتهى من الرّكعتين، والكتاب ماكث أمامه ساكنًا كعادته القميئة، فأخذ مصحف أمّه وهو يقول لنفسه:

- صلاة وصَلّينا، وعلى وضوء، وميّة ميّة، لما نشوف يا عفركوش انت..

وأخذ يقرأ القرآن بصوتٍ عال، فقد يكون الجني نائمًا في هذا الموعد، وأمّه ترفع صوتها بالدّعاء كذلك بالخارج عندما تسمع صوته الخشن المتعتع بتلاوة القرآن،

ولم تفلح كلّ محاولاته في المجيء له بأي جديد، وجاءه الحلّ دون إعداد منه؛ فبعد شهرٍ كامل من هذا الحادث أتته توصيلة لنفس الرّجل الضخم الذي ذهب إليه يوم ظهور الكتاب، والتي لم تكن سوى طلبيّة من الحشيش، ولكن تمّ تغطيتها بطلب وجبة من هذا المطعم الذي يعمل به هشام، وكان الموعد مبكرًا قبيل مغيب الشمس، والجوّ صحو؛ لا مطر ولا رياح به، تمّت العملية بسلام،

ولم يمنحه الرجل الوجبة كما فعل في المرّة السالفة، وخرج هشام من باب العمارة واتّجه لدراجته ممتطيًا إيّاها، وقبل أن يدير موتورها أتته الفكرة، فركنها كما كانت وعاد إلى بواب العمارة الذي يجلس على كرسيّه العتيق مستمتعًا بسيجارته الملفوفة بالتبغ القديم، وقال له:

- أهلًا يا عمّ..؟

أدرك البواب أنه يريد التعارف فقال له:

- محسوبك محمد المنياوي، أؤمر يا حبيبي.

ابتسم هشام وقال له:

- معذرة يا عمّ محمد، سؤال سريع فقط، هل يسكن هذه العمارة أو إحدى العمارات القريبة قسيس أو رجل يهودي؟

دهشَ الرجل من السؤال، وقال له:

- لا يوجد قساوسة أو يهود هنا، إنما يوجد مسيحيّون في كلّ مكان كالعادة.

استكملَ هشام رحلته في البحث وهو يقول له:

- هل تعرف أحدًا من المسيحيين يعمل أستاذًا للغات القديمة أو يهتمّ بالكتب الأثرية والقديمة؟

عدلَ الرجل عمامته وقال له:

- في الحقيقة لا أدري، ولكنهم عاديون لا شيء خاصّ ظاهر عليهم، إن كنت تريد منّي بذل الجهد لمعرفة ذلك أنا على استعداد.

شعرَ هشام بأنّ الرجل يحاول ابتزازه، وحتمًا لن يصل لشيء،

فشكره وانصرف وقد أدركَ أنّ هذا الكتاب لا جدوى منه، والحلّ كما قال له عمر أن يحاول الاستفادة منه ببيعه لأيّ معتوه قد يظنّ به الأوهام التي شغلته طوال الشهر السالف.. وبالطّبع رفض مينا وعمرُ عقدَ الصفقة معه، فحمله إلى سور الأزبكية ومرّ أولًا على معظم الباعة به ليسألهم إن كان يعرف أحدُهم ماهية هذا الكتاب،

وعندما عانقه الفشلُ المعتاد في ذلك؛ استقرّ على بيعه بخمسة جنيهات لأحدهم الذي قال له:

- الكتاب لا يساوي شيئًا، ولا قيمة له، فلا هو مفهوم ولا معروف مصدره، ولن يجذب أي شخص لشرائه، ولكن قد يأتيني الرزق من أي مخبول قد يعجبه ذلك، لذا إن لم يحدثْ فخسارة الجنيهات الخمسة هيّنة ويمكن تحملها، فهل توافق على البيع؟

حسبها هشام في رأسه، ووجد أنها صفقة رابحة، ودسّ الجنيهات الخمسة في جيبه وانطلق وهو يحاول صرفَ ذهنه عن هذا الكتاب الذي لم يفزْ منه إلّا بهذه الجنيهات التي لا تساوي ثمن المكالمات التي أنفقها لأجله، والعلبة التي قرر أن يجعلها خزانة أمواله يدخّر فيها ما يتبقى من راتبه.

* * *

مرّ أسبوع كامل حتى توقّف مينا وعمر عن سخريتهم اللاذعة منه بعد بيعه للكتاب، وعاد هشام لحياته الرّتيبة كما كانت تمامًا.

وبينما كان يستريح على مقعد من مقاعد المطعم في انتظار مكالمة تطلب وجبة سريعة، وبينما كان يشاهد أحدَ البرامج الحوارية كان موضوع الحلقة عن جريمة قتل غامضة لسائح أمريكي سبب الوفاة غير مرتبط بالهيئة التي وُجد عليها

وتمّ ذكر تاريخ الرجل منذ دخوله إلى القاهرة.

وفجأة اتّسعت عينا هشام دهشة، لقد تمّ عرض صفحات الكتاب أمامه على الشاشة..

ضابط المطار الذي تشكّك فيه والتقط تلك الصور للكتاب العجيب المرافق له

يظنّ أن هذا الكتاب هو السبب في الجريمة، ويتمّ عرض تلك الصفحات فقد يتعرّف أحدهم على الكتاب، ويدلي بمعلومات تفيد عملية البحث عن القاتل المجهول.

انتصبَ هشام واقفًا، وقد شحذت كلّ مشاعره فجأة، وغمره الانفعال.. الكتاب بالفعل يوجد به سرّ كبير يستحقّ قتل الرجل لأجله، لقد خسره لجهله بقيمته وببلاهته.

كانت السّاعة هي العاشرة مساء، وحتمًا تاجر الكتب الذي اشتراه لا يعمل في هذه السّاعة المتأخرة، تمنّى من كلّ قلبه ألّا يكون الرجل من متابعي هذه البرامج وأن يغطّ في نوم عميق في هذه الساعة، تمنّى لو تمرّ الدقائق بسرعة البرق ليذهب إليه مستعيدًا هذا الكتاب، والذي لم يعرف قيمته بعد، ولكن ظهرت له مدى أهميّته،

أتتْ مكالمة تطلب وجبةً عاجلة، فقطعت عليه متابعته للبرنامج.

كاد يهمّ بالصراخ في مديره قائلًا له بأنه لن يذهب حتى ينتهي من هذا البرنامج ولم يستطع، فانطلق وعقلُه لا يكفّ عن التفكير، والحماس قد أشعلَ بكلّ جسده طاقةً عجيبة.

ولم يستطعِ النّوم طوال الليل من شدّة قلقه وتوتره، ترى هل باع الرجل الكتاب أم مازال رابضًا عنده في ركن مهْمل؟

هل شاهد تاجر الكتب البرنامج، وأدرك كمْ هو ثمين؟

هل سيرضى الرجل بإعادته له؟

وفي تمام التاسعة صباحًا كان يقف أمام الكشك المغلق منتظرًا صاحبه، ومرّت السّاعة عليه دهرًا حتى جاء الرجل يتهادى في مشيته، ولم يطقْ هشام صبرًا فأخذ يسأله عن الكتاب، ضاقت حدقتا الرجل محاولًا التذكّر، وقال له:

- آه، ذلك الكتاب العجيب، والذي خدعتني وأخذت منّي خمسة جنيهات لأجله، وهو لا يساوي حتى ثمن تنظيفه من الغبار الذي يكسوه؟!!

شعرَ هشام بالسّرور والحبور وقال له:

- نعم لقد خدعتك بالفعل، وضميري يؤنّبني لأجل ذلك ولهذا عدت لأعطيك أموالك وآخذه.

ضاقت حدقتا الرّجل كثيرًا وهو يرفع بابه الصاجي لأعلي وخالجه يقين بأن هناك أمرًا ما قد جدّ في شأن هذا الكتاب.. فقال له

وهو معطي ظهره لهشام ويخطّ خطوته للداخل:

- لماذا لم تأتِ مبكّرًا منذ يومين؟!!

ظهرتْ خيبة الأمل جليّة، والحسرةُ على صوت هشام وهو يقول له:

- هل اشتراه أحدهم؟

ابتسمَ الرجل وقد أدرك أنّ مناورته قد نجحت وتيقّن بأن الكتاب أصبح له سعرٌ، فقال له بتخابث:

- كم تدفع كي أسترجعه لك؟

قال له هشام بلهفةٍ مغريًا إيّاه:

- سأعطيك ضعف الثمن الذي بعته أنت به.

شعر الرجلُ بالظفر، فقال له ببطء:

- ماذا ستقول إذا أخبرتك أني بعته بخمسين جنيهًا؟!

ابتلع هشام ريقَه بصعوبة شديدة، ونفخ زفرة من الهواء، وتراخى ذراعاه بجواره، واتّضح للرجل أنّ هشام سيتركه، وأنّ الكتاب لا يستحقّ كلّ ذلك، فاستدرك سريعًا قائلًا:

- ولكن يمكنني منحُك إيّاه بستين جنيهًا فقط، فما رأيك؟

كانت مناورة الرجل ناجحة جدًّا، فقد هبط السّعر من عليّين بشكل يشعر هشام بالرّبح، لا بالمغرم، فقال مسرعًا:

- وأنا موافق.

ولدهشة هشام أعطاه الرجل الكتابَ مباشرة مطالبًا بثمنه،

فأخذ يسبّه في سرّه على تلاعبه به، واصطحب الكتاب وهو يشعر بالشّجن لأجله، ويدعو في سرّه أن يكون فعلًا مستحقًّا لكلّ هذا العنت الذي واجهه، وأنْ يتمكّن من فكّ طلاسمه قريبًا، ومعرفة قيمته وقدراته السحرية، أخفى الكتاب في علبته الخشبية الأنيقة، والتي كانت خازنة خاوية لنقوده.

وعندما سخر منه مينا وعمر بعد مشاهدة البرنامج ومعرفة قيمة الكتاب آثر ألّا يخبرهما بما حدث، وأنه عاد إليه وذلك كي لا يقتسما معه الكنز، وعندما طالبه عمرُ بالذهاب للإبلاغ عن حقيقة الكتاب، وكيف وجده، وأين باعه، فقد يدلّهم على حلّ لغز الجريمة.

قال له هشام:

- فليذهب القاتلُ والمقتول إلى الجحيم، ما لي بهما، لن أدخل في سين وجيم وكلّ يوم استدعاء للنيابة لأجلهما.

هزّ عمر رأسه موافقًا على رأيه بأنّ الأمر لا يستحقّ العنت فعلًا، وأخذ هشام منه ومن مينا موثقًا بألّا يتحدثا ولا يشيرا من قريب أو بعيد بأن الكتاب ظهر معه، وذلك حتى لا يجابه الصّعاب مع الشرطة المفترية، والتي لن تصدقه وسيناله منها الويلُ والثبور، وكلّ ذلك دون فائدة تذكر، فليس لديه أيّ خيط يدلهم على الوصول للقاتل فعلًا.

* * *

شهر ونصف الشّهر، ومايكل يكاد يجنّ بسبب ما حدث، فقدْ مات منه ديفيد قبل أن يحصل على كتابه الأسْطوري، وحتى دون الوصول لأيّ أثر يوصله إليه بعد موته، فحافظة ديفيد لا تحوي سوى هويته الأمريكية، وبعض النقود، ولا أثر عن محلّ إقامته.

تركَ جثّة ديفيد مرتمية على الأرض أمامه، وأخذ يجول ذهابًا وإيابًا يفكّر كي يتخلّص منها بطريقةٍ تمنحه طرف خيطٍ يكمل به بحثه والوصول لغايته.

ترى أين الكتاب الآن؟ المنطق يقول بأنه حتمًا في مقرّ سكن ديفيد طالما أنه لم يأت به معه، إذًا الحلّ هو أن تظهر جثة ديفيد وتعمل الشرطة لكشف شخصيته ومحلّ إقامته ليجد هو الكتاب في ذلك المكان، لذا وفي منتصف الليل وفي هذا الجوّ البارد، والذي حتمًا يدفع الجميع للاختباء وإخلاء الطرقات، نظّف هو ديفيد من أي أثر قد يحمله منه، وفي منطقة بعيدةٍ تمامًا عن عنوان شقته النائية وضعه جالسًا على كرسي خرساني بإحدى الحدائق العامة، وانطلق منتظرًا وسائل الإعلام تتحدث عن الحادث.

ولخيبته الشديدة، كان الصّمت التّام لمدّة أسابيع ثلاثة قبل أن يُعلن عن لغز مقتل الأمريكي الغامض، والعجيب وكتابه الأسطوري، فعظامه المهشّمة تنفي تمامًا موته الهادئ الظّاهر عليه بجلسته تلك التي وجدوه عليها، ورويدًا بدأت القضية تثار في مختلف وسائل الإعلام، ولكن لم يشرْ أحدهم أبدًا إلى محلّ إقامته..

ولهذا وبكلّ جرأة توجّه هو إلى قسم الشرطة المسئول عن متابعة الجريمة.. وبكاميرا حديثة وحقيبة أنيقة بها الكثير من الأوراق قدّم مايكل نفسه للضابط على أنه صحفي أمريكي يريد نقل الحقيقة للشارع الأمريكي بكلّ مصداقية كاشفًا جهود الشرطة المصرية الكثيفة والرّائعة لكشف غموض ذلك اللغز الغامض المرتبط بمقتل ديفيد.

رحّب به الضابط، وبدون أن يسأله عن هويّته كما يروق له أن يتثاقل على الصّحفيين المصريّين، وظلّ مايكل يسأله عن جميع ملابسات الحادث منذ بدء العثور على الجثة حتى ظهور ضابط الجوازات الذي أبلغ عن وجود كتاب أثري ضمن محتوى حقائبه، وظنّه أنّ هذا الكتاب إنما هو الدّافع الحقيقي لجريمة القتل بدليل وجود حافظة القتيل بما فيه من نقود دون انتقاص، وباهتمام شديد سأله مايكل قائلًا:

- وهل وجدتم ذلك الكتاب في محلّ إقامته بالفعل؟ أم تظنّون بأن القاتل قد حصل عليه؟

نفض الضابط كفّيه، وقال له: لم نرَ هذا الكتاب إلّا في الصور التي أعطاها لنا ضابط الجوازات.

هزّ مايكل رأسه متفهمًا، وبابتسامة دبلوماسية سأله معروفًا بأن يمنحه محلّ إقامة ديفيد ليقوم بعمل حديثٍ صحفي مع جيرانه ومَن تعامل معهم هناك، وبلا تردّد منحه الضابط ما يريد، والتقط ديفيد

عدّة صور للضابط، وبعض معاونية في عدّة أوضاع تظهر الأهمية والجديّة، وهُم في أشدّ السّعادة بأن صورهم ستتصدر الصحف الأمريكية.

وقبل أن ينصرف توقّف صامتًا ثمّ عاد للضابط ليسأله باهتمام أشدّ:

- هل شقة ديفيد عليها رقابة أو حظر من أي نوع إذا ذهبت لتصوير محتوياتها؟

بابتسامةٍ واسعة ردّ عليه الضابط قائلًا:

- لا، فهي ليست مسرح جريمة، فبعد تفتيشها لم نجدْ بها إلّا بعض أغراضه القليلة، ولا يوجد أيّ أثر للعنف أو دليل يقودنا إلى شيء.

اتّسعت ابتسامة مايكل وشكره بدبلوماسية وانصرف وقد حصل على كلّ ما يريد.

وفي المساء، توجّه إلى العنوان الذي حصل عليه لشقّة ديفيد، وبمديته الخاصّة حاول فتح الباب، ولكن فشل في ذلك فقد كانت موصدة بمفتاحها بشكلٍ كامل يستوجب كسر القفل أو جزء من الباب كي يتمكّن من الدخول، وهذا سيسبّب ضوضاء كبيرة تفسد كلّ شيء، ولهذا ارتدى منظارَه الأسود الكبير ليغطي الكثير من وجهه، وهبط إلى حجرة إقامة البواب ليطرقها بعنف، خرج إليه الرجل لاهثًا مترقبًا ليتساءل مَن الطارق، وماذا يريد؟

وبجديّة صارمة سأله إن كان لديه مفتاحٌ لشقة ديفيد.. ارتبك البواب وقال له:

– نعم، معي مفتاح احتياطي لها، ولكنْ لن يمكنني منحه لمخلوق إلّا بعد إذْن صاحب العماره نفسه.

مال مايكل على أذنه، وقال له هامسًا:

– أنت تتحدّث مع المخابرات الأمريكية الآن، ونحن نحقّق في مقتل أحد مواطنينا، سنمنحك مكافأة كبرى مقابل أن تفتح الشقة لمدّة نصف الساعة فقط حتى نبحث عن دليلٍ يقودنا لقاتله، وليس في ذلك ضررٌ لك أو لبلدك ولن يشعر به مخلوق.

ارتبك البوّاب، وارتجف وقبل أن يردّ عاجله مايكل قائلًا:

– مصلحة وطننا وأمن مواطنينا قد تدفعنا لقتل مَن يعيق تحرّكاتنا بدلًا من مكافئته.

وبلا تردّد منحه البوّاب مفتاح شقة ديفيد ليصعد إليها مايكل فاحصًا إيّاها فحصًا دقيقًا باحثًا في كلّ الأماكن التي تحوي الكتاب، وبشكل خفي قد لا يدركه المصريون.

ولكنْ خاب أمله، فقد كان من الواضح أنّ الكتاب خارج هذه الشقة تمامًا، أصبح الخيط الأخير لدى مايكل هو المسرح الفعلي للجريمة، الشارع الذي قتل ديفيد في باحته.

البوّابون هُم أكثر الناس ثرثرة وإدراكًا لأسرار المنطقة كلها، لذا وببقشيش سخي محاولًا فكّ عقدة لسان الكثيرين منهم ليسألهم عن كتاب أجنبي عجيب وجَدَه أحدهم في مدخل عمارته، وبالطبع كان الفائزُ هو عمّ محمد المنياوي الذي أخبره عن أسئلة هشام السابقة

له، وأخذ يتذكّر اسم المطعم الذي كان مكتوبًا على دراجة هشام البخارية ولم يفلح، فمنحه مايكل مائة دولار، ووعده بمثلها إذا اتّصل به على رقم جوّاله المصري ليخبره باسم هذا المطعم إن عاد هشام إليه بدراجته تلك، بشرط ألّا يشعر هشام بشيء.

* * *

كان المذيع يتحدّث بحماسة وهو يقول بأنّ صور الكتاب الأثري قد غزت شبكة الإنترنت بشكل كثيف، وليظهر مصدر مجهول يقول بأنّ الكتاب مرتبط بأسطورة عجيبة تقول بأنّه كتاب الأقدار؛ هو كتاب خاصّ حيث يمكن للمرء أن يخطّ فيه قدره بيمينه، وما يكتبه سوف يتحقّق، وأنّ هذا حتمًا سبب جريمة القتل التي حدثت، صراع لأجل كتاب الأقدار.

وتحدّث الضيوف جميعًا عن أن هذا خطأ وشعوذة، ولا يمكن أن يكون حقيقيًّا،

فتلك أساطير العصور الوسطي وخرافاته، وتوسّط البرنامج إعلان صاخب عن شركة برمجيات إلكترونية تطلب متخصّصين للعمل فيها برواتب مغرية جدًّا.

وضمّ هشام قبضته بقوة واكتنفته سعادة جمّة، وقد علم أين يختبئ الجني الذي ينتظره، وتمّ فكّ طلاسم لغز كتابه، وقد أدرك أنه يستحقّ كلّ الثمن الذي أنفقه لأجله.

لذا، وبلا اهتمام، ذهب يخبر مديره بأنه لن يستطيع إكمال نوبة عمله هذه الليلة، ولم يصغِ لتهديداته وهو ينطلق متقافزًا منتشيًا متعجلًا الوصول إلى كنزه الثمين.

* * *

.. «تمّ تعيين هشام عبد الحكيم في الشركة الحديثة للبرمجيات براتبٍ خيالي وكبير»..

بخطّ مرتعش، كتب هشام هذه الجملة في صفحة جديدة من صفحات كتاب الأقدار الخاوية، وظلّ ينظر لها مليًّا، ترى هل سيتحقق ذلك؟!

فإعلانات هذه الشركة تغزو التّلفاز هذه الأيام وتحتلّ صفحات كاملة من بعض الصّحف واسعة الانتشار، وبالتالي من المحتّم أنه سيتقدّم لها عشرات الآلاف من المستحقّين الفعليين لهذه الوظيفة.

فكيف سيتمّ تعْيينه وهو لا يحمل أيّ مؤهل لهذا التعيين فيها؟!

وجدها فرصةً رائعة لاختبار مدى صدق هذه الأسطورة، ولمعرفة قدرات الجني المختبئ بين أحرف الكتاب، ظلّ هشام طوالَ الليل يتقلب في فراشه يجافيه النوم، وخيالُه يحلّق بعيدًا وسط أحلامه الوردية، كيف سيتغير الحال إذا تمّ تعيينه بالفعل في هذه الوظيفة وبهذا الراتب؟

وما هي الأمنيات الأخرى التي سيقومُ بتسْطيرها في كتاب الأقدار هذا إذا تحقّقت أمنيته الأولى، وأخيرًا بزغ نور الصباح

لينهض هشام بعينين منتفختين من قلة النوم وكثرة القلق، وظلّ يتعجّل الساعة التاسعة التي تتلكأ في المجيء حيث أنها موعد إجراء المقابلات للعمل بهذه الشركة، وأخيرًا هندم ثيابه وشعْرَ رأسه، وقام بتلميع حذائه على عجل، ولم ينسَ أنْ يطبع قبلة سريعة على جبين أمّه، وهو يقول لها في صوت متهدّج:

– ادْعي لي يا أمّي، فاليوم هو اليوم الفاصل في حياتي.

وانطلق تصحبه دعوات أمّه المنهمرة عليه من كلّ صوب.

وأخيرًا، وقف أمام المبنى الشاهق والأنيق ينظر إلى لافتته العملاقة التي تحمل اسم الشّركة، وتنهّد بعمق وخطّ بقدمه داخلًا إليها وهو يثق بأنه سيخرج منها مرفوع الهامة بعد قليل، ذهل هشام من المشهد الذي رآه، كان يظنّ نفسه مبكّرًا فإذا بأعداد غفيرة قد سبقته، نظرَ لملبسه العادي المكوّن من قميص مخطّط، وبجيبين من الأعلى وبنطاله ذي النسيج الخاصّ، والذي يعتمد على أن يكون ذا مظهرٍ يوحي بحاجة إلى مكواة، ولكن موضة اللبس تتطلب أن يكون بهذا المشهد، ثمّ أطلق بصرَه فيمَن يقفون وينطلقون أمامه ذات اليمين وذات اليسار.. منتهى الأناقة واللّمعان.

هذا أقلّ ما يمكن وصفه على أقلّهم هندامًا، يرتدون بذلات ذات ماركات معروفة يتعمّدون إظهار هذه الماركات للنّاظر إليهم، الألوان متناسقة تمامًا، والعطور تتداخل فيما بينها بروائحها وعبقها المميز والأخّاذ.

وكلّ منهم يحمل حقيبة ذات طابع خاصّ توحي لمن أمامك بمدى أهمية حاملها، حاول هشام المقارنة بينه وبينهم، ولم يجدْ أدنى وجه لهذه المقارنة.

كانت هناك سكرتيرة متألّقة كذلك في مشهدها الجذّاب والأخّاذ، سواء بحسن طلعتها أو بأناقة ملبسها كذلك.

توجّه إليها هشام مباشرة ليستطلع ما الأمر، وما هي الإجراءات المتبعة، اقتحم عطرُها أنفَه وهي تتحدّث مع أحد هؤلاء القادمين من كوكب الأناقة والتميز، والأخير يحدثها بإنجليزية صرفة وسريعة، ويخرج لها بعض أوراقه المحتفّظ بها في عناية داخل حقيبته.. وهي كذلك تردّ عليه بنفس لغته وبراعته وتمنحه ورقة كان من الواضح أنها تطلبُ منه توقيع عقد العمل، أو أيّ شيء يضمن له الوظيفة.

تنحنح هشام وتقدّم إليها رافعًا حاجبيه وهو يعلم بأنه أمامها أشبه بشحّاذ يقف في أحد مؤتمرات رجال الأعمال الدولية وقال لها:

– لو سمحت يا باشمهندسة أنا قادم لطلب التّوظيف لديكم.

بابتسامة آلية ولدهشته مدّت إليه نفس عقد العمل الذي منحته للكائن الذي كان يقف قبله، وقلت له: تفضّل بملء هذه، ونطقت كلمة إنجليزية لم يعرف معناها، دهش هشام.. هل من المعقول أنه تمّ تعيينه بهذه السّرعة فقال لها:

– حسنًا عقد العمل هذا لمدّة كم سنة؟.

لم يخفِ عنه بسمتها السّاخرة، والتي تلاشت بدبلوماسية سريعة وهي تقول له بالعربية:

– هذه استمارة تعارف فقط وليس عقدًا للعمل، العقد بعد إجراء المقابلة والنّجاح فيها.

هرشَ هشام في مؤخّرة رأسه، وقال لها: «آه، شكرًا».

وأخذ الاستمارة، ولكنْ قبل أن يستقرّ على كرسيه تذكّر بأنه لا قلم معه ليكتب به، فعاد إليها ليجدها مُنهمكة في حديثٍ هامس مع أحد الدّمى البرّاقة تلك، والذي يهمس لها بكلمات ما، وهي تحاول كتمَ ضحكاتها وتقول له:

– ستظلّ هكذا طوال حياتك يا عمرو.

وعمرو يقول لها بمنتهى الشّاعرية:

– مَن يراك يا ميّ يعود طفلًا من جديد.

كان هشام مرتكنًا بذقنه على قبضة يده المرتكزة على المنصّة التي تقف خلفها ميّ السّكرتيرة الجميلة، لم يتمالك نفسه من التنهّد بعد جملة عمرو الأخيرة، وقال له بصوتٍ يقطر سخرية، «يا حيلتها!!».

انتفض عمرو، وكذلك ميّ وتنحنحت، وقالت لعمرو وهي تمدّ يدها له بنفس الاسْتمارة التي كان هشام يظنها عقدًا للعمل قائلة له نفس الجملة الآلية تفضل بملء الأبليكاشن، والتي علم هشام بأنها تعني استمارة التعارف، فأخذها عمرو وانطلق صامتًا، والتفتت هي نحو هشام قائلةً له في حدّة..»نعم، ماذا هناك؟».

تنحنحَ هشام ورفع حاجبيه كعادته عندما يشعر بأنه في مفارقة كبيرة وقال لها..

«معليش يا أبلة ممكن قلم أكتب به».

رفعتْ مي حاجبيْها بقوّة، وقالت مستنكرة: «أبلة!!»، ثمّ تداركت الأمر بسرعة ومدّت يدها بقلم إليه قائلة له عنفٌ أعقبه تنهّد.. «تفضّل».

تعمّد هشام أن يضايقها أكثر وهو يقول لها: «صباحك قشطة بإذن الله».

فردّت عليه بكلمة إنجليزية لم يعرف مغزاها، «Disgusting» والتي تعني مقزّز".

فابستم وهو يقول:

– الله يخليكِ، لا أشرب الشاي في هذا التوقيت، مرّة تانية بإذن الله.

وتركها وانطلق وهي تحاولُ كتمان ضحكاتها التي كادت تنطلق رغمًا عنها، ولكن قبل أن تنظرَ للتالي إذا بها تفاجئ به أيضًا يقف أمامها، ويقول لها:

– معليش يا أبلة مرّة تانية، البيانات كلها بالإنجليزي، هل لا بدّ وحتمًا أن نملؤها باللغة الإنجليزية؟.

فقالت له بسرعة: "نو، اكتب بأي لغة تجيدها".

وصرفت نظرها عنه، ولكنّه كان ملتصقًا بموضعه ليسألها مرّة أخرى قائلًا: "هل كلّ الأسئلة إجبارية، ويجب الإجابة عنها كلّها؟".

قالت بنفاد صبر: "نو، أجب ما تشاء منها فقط".

فقال لها: "روحي يا شيخة إلهي يخلّيهم لك".

وانطلق وكلمة (Disgusting) تطرق أذنيه، ولكنه لم يعرْها بالًا هذه المرّة.

وجلس على كرسيّه يحاول معرفة ما المطلوب في هذه الاستمارة فلم يفهم من كلّ ما هو مكتوب أمامه إلّا الاسم وتاريخ الميلاد والعنوان.. فكتب إجابتهم باللغة الغربية، ونظر للمجاور له فوجده قد ملأ استمارته باللغة الإنجليزية، وبخطّ أنيق يحسده عليه كلّ برامج الكتابة الكمبيوترية..

فقال له وهو يتنحنح:

– لو سمحت يا باشمهندس، السؤال الخامس ماذا يعني؟.

فإذا بجاره يحجبُ ورقته عنه ويستدير بها بعيدًا، فقال له هشام:

– يا سلام! تشعرني أنك بامتحان الدكتوراه، حسنًا لن أجيب أكثر ممّا كتبت، وسترى بنفسك من الذي سيتمّ تعيينه فينا.

والتفت ليجد جارَه من الجهة المقابلة يتحدّث في جوّاله هامسًا ويقول:

– أوك يا أونكل، سأخبره أنّ حضرتك وكيل وزارة الاستثمار، وطنط هي المدير العام لشركة البتروكيماويات، ومعي الكروت التي سأظهرها له.

فاعتدلَ هشام في جلسته، وقال لنفسه بخفوت:

– من الواضح أن هذا الجني سيمرّ باختبار عسير، يجب عليّ أن أمنحه هدية خاصّة لو نجح في تحقيق أمنية اليوم.

وقام متوجّهًا نحو ميّ التي ما إن رأته قادمًا نحوها حتى ألقت ما بيدها وتنهّدت بقوة وقالت له:

– نعم؟!! ماذا هناك هذه المرّة؟!!.

قال لها هشام ساخرًا:

– بارك الله فيما رزق، أنا أنهيت إجاباتي.

ومنحها ورقته لتطلب منه الانتظار، ولأنها تبغي التخلّص منه سريعًا، وضعت ورقته أوّل ورقة ليكون هو أوّل مَن يتمّ المقابلة معه مع المهندس جمال مدير الشّركة؛ لذا لم يمرّ على جلسته خمس دقائق حتى نادته ميّ لتخبره بأن يتفضل للدخول إلى المقابلة.

بخطوات متردّدة تقدّم هشام ليدخل ذلك البهو الكبير والمسمّى خطئًا بحجرة المكتب لمدير الشركة، الجوّ المكيف والمعطر والكثير من النباتات الزّاحفة والمتسلقة والملتفّة واللوحات العجيبة التي تعبر عن أشياء غامضة، ولكن من الواضح أنها مرتبطة بصراعات الإلكترونيات مع النيترونات داخل الذرة أو ما شابه،

وخلف مكتب لم يرَ هشام مثيلًا له من قبل، جلس م. جمال بأناقة لا تقلّ بأي حال عمّا امتلأت به عينا هشام في الخارج، وبمنظار سميك يوضح بقوّة بأن هذا الرجل مجنون إلكترونيات أو عبقري كمبيوتر عقله حتمًا يحمل عدّة برامج تشغيل فائقة.

فتقدّم هشام ومدّ يده ليسلم عليه بقوّة، وأشار له المهندس جمال بأن يجلس فجلس وهو ناظر إليه مترقّب لسيل الأسئلة التي

ستنهمر عليه في مجالات لا يفقه عنها شيئًا تشبه كم ذرّة تحوي شاشة الكمبيوتر عندما يعمل برنامج كذا، وكيف يتمّ اختراع كمبيوتر في خلال عشر دقائق.

ولكنّه وجد الرجل ينظر مليًّا للاستمارة التي لم يكتبْ فيها سوى اسمه وتاريخ ميلاده وعنوانه.

وأخيرًا رفع الرجل رأسه وسأله:

– لماذا لم تكمل بياناتك في هذه الاستمارة؟.

تنحنحَ هشام وقال:

– لأنّي لا أجيد الإنجليزية، ولم أعرف معنى الأسئلة المتبقية وحينما حاولت الاستعانة برفيق أخفى ورقته كأنما يخاف عليها من الحسد.

ارتسمتِ ابتسامة واسعة على وجه المهندس جمال، وقال له:

– ما هو مؤهّلك، وما هي الدّورات أو الشهادات التي معك في مجال أعمال الكمبيوتر؟.

فتحَ هشام كفّيه وهو يقول له:

– أنا متخرّج من كلية التجارة قسم المحاسبة، ولم أحصل على دورات ولا شهادات في مجال أعمال الكمبيوتر.

سأله الرّجل بعناية:

– هل تجيد الفيجوال بيزك أو الأوراكل أو برامج الثري دي أو الفوتوشوب أو حتى الأوفيس؟.

قال هشام بمنتهى البساطة:

– كلّ ما ذكرته أمامي، هي المرّة الأولى التي أسمع عنهم الآن.

قال الرّجل بمنتهى الاهتمام:

– ما هو نظام التشغيل الذي عملت عليه، هل عملت يومًا على الدوس، وما مدى خبرتك في الويندوز وهل تعلم شيئًا عن اللينوكس؟.

ابتسم هشام وقال:

– أنا سمعت أنّ بالكمبيوتر شيئًا يسمّى الويندوز، ولكن لم أسمع عن الأشياء الأخرى التي تفضّلت بذكرها الآن.

استكمل الرجل أسئلته وقال له:

– هل تستطيع التفرقة بين أنواع شرائح الذاكرة التي يتمّ تركيبها بأجهزة الكمبيوتر والتي نسميها الرّامات؟.

قال هشام بمنتهى البساطة:

– أنا رأيت الكمبيوتر أكثر من مرّة من الخارج فقط، ولا أعرف ما هي مكوناته أو كيف يمكن التفرقة بينها.

عادَ المهندس جمال بظهره للخلف، وعقد ساعديه أمام صدره، وقال له:

– لماذا تقدّمت لهذه الوظيفة يا هشام؟ وأنت لا يوجد لديك أي خبرة أو مؤهلات للعمل فيها؟.

سكتَ هشام هنيهة، وفكّر أنه بالطبع لن يمكنه التحدث عن كتاب الأقدار، وقدرات الجني المسئول عن تحقيق الأمنيات فيه، ولكنه قال:

– شركة كبرى لها حملات إعلانية ضخمة بمثل ما رأيت حتمًا رواتبها عالية، ويسعى لها الجميع، فتقدّمت على أمل التعيين فيها لنيل هذا الراتب.

نظر المهندس جمال له مليًّا، وقال له:

– ما هي فرص تعيينك معنا من وجهة نظرك؟.

اتّسعت ابتسامة هشام، وقال له: "شبه أكيدة بإذن الله".

لم يتمالك المهندس جمالُ ابتسامتَه التي اتّسعت أيضًا، وهزّ رأسه، ثمّ ضغط زرًّا بجانب مكتبه لتدخل ميّ وهي تنظر نحو هشام شذرًا منتظرة أن ترى كتفيه المتهدليْن وعينيْه البائستيْن، والهزيمة تنال من كلّ مشاعره، ولكن ارتجفتْ بقوّة واتّسعت عيناها ذهولًا حينما سمعت المهندس جمال يقول لها:

– فلتأت لي بعقدِ عمل في قسم المبيعات لمدّة ثلاث سنوات، وبفترة تدريبية بنصف راتبٍ لمدّة ثلاثة أشهر للأستاذ هشام.

نظرت مي بقوة نحو هشام وقالت: ؟!!What

فابتسم هشام، ورفع حاجبيه وهو يقول لها:

– بسرعة يا أبلة ميّ إلهي يخلّيهم لك، الباشمهندس غير متفرّغ لنا، ووراءه الكثير من العمل اليوم.

ضربت ميّ الأرض بقدميها، وانطلقت وهي تقول كلمتها الشهيرة.. "Disgusting".

وهشام ينادي عليها قائلًا: لا بلاش، خلّيها عصير ليمون الله يخليكِ.

لم يتمالك المهندس جمال ضحكاته، وهو يقول له:
– كفّ عن استفزازها، فهي ستكون زميلتك في العمل لأمدٍ بعيد.

* * *

كان هشام ينطلقُ وهو يتقافز من السّعادة التي تتملك جميع جوانبه..
يا لكَ من جنيّ خارق!!
لقد فعلها وحقّق له المعجزة، لقد نال الوظيفةَ الكبري بالرّاتب العالي، ودونَ أيّ مؤهّلات انتزعها من بين أنياب الديناصورات..
مِن الواضح أنّ الدنيا ابتسمت له أخيرًا، وستتحقّق له كلّ أمانيه في الفترة القادمة.. تُرى ما هي الأمنية القادمة؟ بماذا يحلم؟!
فالأحلامُ قد صارت حقيقة.
أفاقَ من خيالاته على صوتٍ أجشّ يقول له:
– أين أنت يا هشام؟ ولماذا تركت عملَك بالأمس مبكّرًا؟ فهناك شحنة ننتظر توصيلَك لها!.
انتفضَ هشام والتفت ليجدَ أحدَ معاوني عفروتو يقفُ أمامه بهيئته التي تخبرك مباشرةً بأنّ هذا بلطجي، بشاربه المتناثر وملامحه الغليظة والعلامة التي تعدّ ماركة مسجّلة لهم، ندبة كبيرة تشقّ خطًّا طوليًّا على خدّه الأيسر وبملابسه التي تتّسم بكثرة الألون اللامعة وغير المتوافقة أبدًا، بعد أن ألقى ذلك الكائن الجملة السابقة على مسامعه؛ شردَ هشام قليلًا وهو يتساءل قائلًا:

– ترى هل يتغلّب الجنيّ على هؤلاء الوحوش؟

وها قد علمَ ما هي الأمنية التالية.

فقال للرجل: أين عفروتو الآن؟

اندهشَ الرّجل أن ينطق هشام اسمَ زعيمه مجرّدًا هكذا دون أن يطلق قبله لقب المعلم! فقال له: على المقهى في آخر الشارع.

فقال له هشام: أخبره أنّي قادمٌ له لأمر ما بعد قليل.

وانطلقَ هشام في طريقه دون أن يعير الرجلَ اهتمامًا أو ينتظر منه إجابة، ليخرج كتابه من مستقرّه الآمن، وليخطّ فيه بنفس خطّه المرتبك جملتَه التّالية قائلًا..

.. «تخلّص هشام عبد الحكيم من سيطرة عفروتو ورجاله إلى الأبد».

وانطلقَ مباشرةً إلى المقهى الذي يجلس فيه عفروتو هذا ليختبر قوّة الجني أمامه للمرّة الثانية، وكلّه ثقة بأن الفوز للجني حتمًا.

وقفَ أمام عفروتو واضعًا يديه على خصريه، وبمنتهى التحدّي قال له:

– أهلًا يا عفروتو، سمعت أنّك تريدني منذ الأمس في أمرٍ ما، ما هو؟.

أوقفَ عفروتو عملية سحبِ الأنفاس من نرجيلته، وأبعد المبسم عن شفتيه، وترك الدّخان ينساب من بينهما لا إراديًّا، وهو ينظر نحو هشام بلسان معقود، وأخيرًا سعلَ بقوّة وقال له:

– لا شيء يا أستاذ هشام، هل تأمرنا أنتَ بأيّ شيء!!

كاد هشام يستلقي على الأرض مقهقهًا، فمِن الواضح أنّ

عفروتو قد رأى الجني يقف خلفَه منتصبًا بقامته العملاقة، وعلم أنه لم يعدْ له قِبَل به، ولكنّه أراد التأكّد من ذلك فقال له:

– ترى هل ستطلبني لأيّ أمر مستقبلًا، أو سأرى أي فردٍ من رجالك أمامي بعد ذلك؟

قال له عفروتو بمنتهى السّرعة:

– أبدًا، لن يحدث ذلك، وأعتذرُ لك لو ضايقك أحدهم.

ابتسمَ هشام بقوّة، ولوّح له بكفّه اليسرى بلا عناية، وقال له:

– حسنًا، سلام.

وانطلقَ بمنْتهى الخيلاء، وهو يطوّح ذراعيه في الهواء بمنتهى القوة، وعينا عفروتو الذّاهلتان لا تستطيعان مفارقته، وعندما اقترب هشام من مدخل عمارته رآها تنطلقُ أمامه بخطواتها السّريعة، وعيناها لا تفارقان الأرض، وهي تضمّ كتبَها إليها، إنها هديل..

وقفَ هشام ينظر نحوها مليًّا، وقد اكتنفته السّعادة لمجرّد رؤياها، وأخيرًا علم ما هي الأمنية التّالية التي سيسعى لتحقيقها، وكلّه ثقة في أنها ستكون حقيقة ماثلة بين يديه؛ فالجنيّ الماكث بين جنبات كتاب الأقدار قادرٌ بالفعل على تحقيق كلّ ما يصبو إليه.

* * *

«منذ أن مات أبوه في عامِه الثالث بكلية التجارة وهو يحمل على عاتقه مسئولية البيت المكوّن منّي ومنْه وأخته هبة؛ فالمعاش لا يكفي

مطالب الحياة لمدّة أسبوع، وهو- يا ولداه- حاول العملَ في أكثر من مهنة لكي يوفّر لنا مبلغًا يعيننا على بقيّة أيام الشهر، ولم يلتفتْ يومًا لمطالبه الخاصّة، ولهذا وعندما عمل في هذه الشّركة الكبرى وبراتبه المجزي الذي يكفينا ويفيض، وعند أوّل طلبٍ شخصي له لم أستطع الوقوف أمامه أو مناقشته فيه، لذا فأنا أحاورك حوارًا خاصًّا، إن كنتم تقبلون به لابنتكم هديل، سوف أهاتف أعمامَه في طنطا لكي يكون التقدّم رسميًّا لطلب يدها، وحالنا لا يخفى عليكم؛ فنحنُ جيران منذ أكثر من عامين».

تنهّدت والدة هشام، وعادت بظهرها للخلف في المقعد الوثير الذي تجلس عليه وعينُها مسلّطة بقوة على وجه والدة هديل تنتظر ردّة فعلها.

فبعد أنْ رأت محتوى الشّقة التي دخلتها للمرّة الأولى في حياتها، والتي تدلّ على يُسر الحال والهدوء والنّظام والراحة النفسية الكبيرة التي تعبق كلّ ركن فيها مع صوتِ أحد قرّاء القرآن الكريم عبر إذاعته، ومعَ مقارنة هذا بحالها البسيط، فهي تنتظر أيّ ردّ دبلوماسيّ منها، ولكن يحمل رفضًا لا يجرح مشاعرها ولا أحاسيس ولدها.

فمِن الطّبيعي جدًّا في حالة عدم وجود شقة، والتي لكي يحصل عليها هشام مهْما كان راتبه فأمامه أعوامٌ كثيرة، ومع مسئولياته نحو أمّه وأخته، والتي يراها البعض انتقاصًا تلقائيًّا من حقّ الزوجة القادمة؛ الرّفضُ هو القرارُ النّهائي..

ولكنْ أمام تشبّث ابنها وإصراره على الذّهاب ومحاولة طلب اليد فقط، وثقَتُه المطْلقة في أنهم لن يرفضوه أبدًا؛ جعلتها تقوم بهذا الدّور لتعود له بالرفض الذي يجعله ينتهي من لهفته وانشغاله هذا بهديل وأسرتها.

وكما توقّعت، ارتسمت ابتسامة واسعة على وجه والدة هديل، أضاء لها وجهها بقوّة، وتنحنحت وهو تحاول تفادي النّظر المباشر لها وقالت:

– أنتم خيرُ جيرة، لم نسمع لكم صوتًا، أو نرى منكم سوءًا طوال هذين العامين، ولكن قرار كهذا أنتِ تعلمين أنه ليس بيدي؛ فهناك صاحبة الشّأن ورأي أبيها، وكلّ ما أعدك به هو أني سأنقلُ لهم مطلبَك هذا وأردّ عليك في أقرب فرصةٍ بإذن الله.

كان الخروج دبلوماسيًّا لأبعد مدى، فهي لم ترفض ولم توافق، وإنما علقت الأمر ربما لمدارسة القرار مع أكثر من عقل في كيفية الردّ بالرفض دون خسارة.

سلّمت عليها بقوّة وقالت لها: «ربّنا يكتب الخير له ولها يا رب.

وانطلقت والدةُ هشام لتجده واقفًا خلف الباب الذي فتحه لها قبل حتى أن تصلَ لموضعه، وهو يقول لها بمنتهى اللهفة:

– ها... متى سيكون حفل الخطبة؟.

لوّحت الأمّ بيدها في حيرة وقالت له:

– هذه الأمور لا تتمّ هكذا يا هشام، فهناك أصولٌ يجب أن

نتبعها، لقد عرضت عليها طلبنا، ووعدتها عند الموافقة المبدئية سنحدّث أعمامك لكي يكون التقدم رسميًّا بين الرجال، وهي قالت بأنها ستعرض الأمرَ على ابنتها وزوجها وتردّ علينا بعد ذلك.

فرَكَ هشام يديه بقوة، وارتسمت السّعادة جليّةً على وجهه وهو يقول:

– سيكون الردّ بالموافقة إن شاء الله، أنا متأكّد من ذلك.

نظرتْ إليه أمّه بحنان وخوف، وأرادت أن تخفّف عنه الصدمة قبل مجيئها، وقالت له:

– هشام يا ولدي، هي وحيدة أهلها، وبالطبع أغلى ما عندهم، وحالهم غير حالنا واعتادت على عيشة خاصّة، هل تتوقّع أن توافق أو تتحمل العيشة التي اعتدت عليها أنت!؟.

قال لها هشام دون تفكير:

– ستوافق يا أمّي، ثقي بذلك، وحالي هذا لن يدوم، هل كنت تتوقّعين عملي بهذا الرّاتب من قبل؟.

هزّت الأمّ رأسها وقالت:

– لا، فهذه بركة دعائي لك، ولكن أخبرني ما هو مصدر تلك الثّقة المفرطة التي تتحدّث بها عن موافقتها، هل أعددتم الأمر معًا بينكما، وتوجد علاقة لا يدري بها أحدُنا؟.

لوّح هشام بيده في حسرة، وقال:

– وهل هذه التي يفلح معها العلاقات، لقد عجزتُ حتى عن محاولة إلقاء السّلام عليها.

ابتسمت الأمّ بقوّة، وانهمرت عليه بسيلٍ من الدعوات، في حين دخل هشام لينال قسطًا من النوم، ولكن لفرط حماسه عجزتْ عيناه عن السبات.

* * *

كان هشام ينظر إلى الدّبلة الفضية التي تزين أصبعه وهو غير مصدّق، نظر نحو هديل الملاكِ الطيّب الرقيق ليجدها غارقة في خَجلها وهي بين صويحباتها، وهنّ لا يكففْنَ عن المزاح واختلاس النّظرات نحوه أحيانًا والإشارة اليه أحيانًا أخرى،

وعلم بأنّ محور حديثهنّ حوله، انتزعَه صوتٌ أجشّ من نظراته الحالمة لمخطوبته وهو يقول له: ألف مبروك يا هشام.

نظر هشام نحو عمّه الذي لم يره منذ عزاءِ والده، ولكن شعر بالامتنان نحوه لمجيئه ومشاركته حتى لو في المناسبات وفقط، وردّ عليه التهنئة بمجاملة.

ربّتَ والدُ هديل على ظهره، وقال له:

– بإذن الله يا ولدي، منذ الآن أنت أحدُنا، ولا فارق بينك وبين هديل في المحبّة، لذا أوصيكَ بها خيرًا، كما أوصاك الحبيب محمّد صلّى الله عليه وسلم حين قال: «استوصوا بالنّساء خيرًا».

نظر هشام لوجه الرجل الذي يفيض بالطّيبة المتناهية والبساطة والتّلقائية اللّذين لا حدّ لهما، وشعر– بالفعل– بصدقِ كلماته وأنها

خرجت من أعماق قلبه، ولهذا فقدْ وصلت لقلبِه مباشرة، وألقى في صدره محبّة الرّجل الذي لم يتعامل معه من قبل معاملة مباشرة رغم الجيرة في نفس المبنى... ولكن ما ورد بذهنه شيء واحد، فقد قال في سرّه.. «لقد كانت هذه أيسر مهمّة لك أيّها الجني مع هؤلاء الناس الطيّبين»، ولم يتمالك نفسه من الابتسام.

أخيرًا، وبعد التجمّع الأسري البسيط الذي كوّن حفل الخطبة التي كان يحلم بها هشام في منزل هديل، خلا الجوّ له معها بعد ذهاب الجميع، كان يقف بصحبتها في الشّرفة، ولكن على مرأى ممّن يجلس في الصالة الكبيرة حيث كان يجلس والداها مع أمّه وأخته يتبادلان الحديث في ودّ تامّ.

كانت تنظر بعيدًا، وكلما حاولت الالتفات نحوه تجدُ نظراته مسلّطة عليها فتغمس في بحرِ الارتباك المخْجِل مرّة أخرى، وأخيرًا تحدّث هو قائلًا:

– ألف مبروك يا هديل، لقد تحقّق أكبرُ وأفضل أحلامي، حتى أنني ما زلت غير مصدّق بأنّ ذلك في عالم الوعي الحقيقي.

بصوتٍ خافت وهي تبتعد عن محاولة النظر له قالت:

– الله يبارك فيك يا هشام، نسأل الله عزّ وجلّ أن يجعل ارتباطنا هذا قربةً له.

تجاوز هشام نصفَ الجملة الأخير الذي لم يفهمه وقال لها:

– ما هو شعورك الآن؟.

التفتت إليه، ولكن سريعًا ما ابتعدت مرّة أخرى لاقتناصه نظرتها بعينيه المسلطتين عليها، وقالت له:

– أشعر بالسّعادة، فهذا أهمّ يوم في حياتي، وأسأله سبحانه أن يكون بداية حياة ترضيه عنّي.

لم يتمالكْ هشام نفسه هذه المرّة من السخرية وهو يقول لها:

– بارك الله فيك يا مولاتنا، نعم يا ابنة الإسلام، هذا يوم تاريخي يا بنت أبي بلتعة.

التفتتْ إليه هذه المرّة، وحاجباها مرتفعان في دهشة، وهي تحاول كتمان ضحكاتها وقالت له:

– ماذا؟!!!

قهقَه هشام بقوة وقال:

– أقسم بالله أروع تعبيرٍ رأيته على وجهك منذ عرفتُك، ما أروعك!.

لم تتحمّل هديل كلماته هذه المرة فتركت الشرفة تماما دون أن ترد عليه ودخلت لتجلس بجوار أمه وهي تحاول اجتذاب الحديث معها هروبا من هشام .

* * *

كان هشام يغطّ في نوم عميق، وأحلامُه كلّها وردية يفوح منها عبيرُ السّعادة بعد حفل خطبته البَسيط في أحداثه والجلل في مشاعره، وإذا برنّات جوّاله تنتزعه من أحلامِه تلك انتزاعًا..

فتح عينيه بصعوبة، وأوّل ما توجّه نحوه ببصره كان ضوء

نافذته ليجده معتمًا؛ دلالةَ أنه ما زال في ظلمة الليل، ولم يحنْ موعد استيقاظه بعد، فمدّ يدَه يبحث عن جوّاله ليرى مَن هذا الذي تجرّأ وطلبه في هذا الموعد، ولأيّ حدث خطير يوقظه ويختطفه من أجمل أحلامه، ولكن بمجرّد أن رأى الاسم حتى انتفض جالسًا، والتصق الجوّال بأذنه وهو يضغط زرّ الإجابة، فقد كانت هديل..

ولكن ما إن فعل حتى جاءه صفيرٌ حادّ دلالة أنّ الطرف الآخر قد أنهى الاتصال.

نظر في ساعة الجوّال ليجدها الخامسة صباحًا، فتحيّر.. ما الذي دفعها للاتصال به في هذا الموعد، وهي التي لم تفعل طوال الأيام الماضية، وكانت ردودها على مكالماته باختصار شديد؟!!

خشي أن يكون أبوها أو أمّها يعانيان أمرًا ما وتستنجد به في هذا الموعد، فطلب رقمَها ليرى ما الأمر، ولكنْ بمجرّد أن فعل حتى انقطع الرّنين دلالة أنها رفضت استقبال المكالمة.

.. خشي أن يكون الحدث جللًا؛ فقام واقفًا وهو يرتدي بعضَ ثيابه المناسبة للخروج لكي يذهب إليهم يستطلع ما الأمر، ولكن قبل الانتهاء منها إذا بصوت رنين استقبال جوّاله لرسالة، وقد كانت منها، فتحها بلهفةٍ وفضول شديديْن ليجدها كاتبة.. «ركعتا الفجْر خيرٌ من الدنيا وما فيها» صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قذف هشام جوّاله بعيدًا وهو يقول: نعم يا ختي!!، أعيش فيلم الرعب هذا لتبعثي لي برسالة فضل صلاة الفجر!!

وارتمى على سريره وهو يقول.. معاندة لك؛ لن أصلّيه.

حاول الغفو مرّة أخرى، ولكنّ الدماء التي اندفعت في عروقه بسبب الانفعال أطارت النومَ تمامًا من عينيه، وارتفع أذان الفجر والذي يكاد يسمعه للمرّة الأولى بالفعل، حاول أن يضع وسادته على رأسه محاولًا تجاهله، ولكن عندما صدح المؤذّن بقوله «الصّلاة خيرٌ من النوم» وكرّرها مرتين، وقعت منه موقعًا.

كان مغتاظًا من موقف هديل التي تعتبره طفلًا تؤدّبه وتعلمه الدين من جديد..

ولكن، هو لا يستطيع النوم الآن، وصلاة ركعتين لن يستغرقا منه الكثير، وسوف يقسم لها أنه قد صلّى الفجر بالفعل ويثني عليها ويشكرها على فعلها الجميل هذا مما يقربها أكثر منه ويثير إعجابها وتتفاعل معه أكثر مما هي عليه، وسوف يغلق جوّاله بعد ذلك حين النوم حتى لا تنال منه مرة أخرى.

ابتسم بقوّة، وقام وصلّى الركعتين بجوار سريره بأسرع من البرق، وحاول النوم هذه المرّة، ولدهشته.. سريعًا ما ذهب في سبات عميق!

* * *

.. «لا أدري كيف أشكرك، أنا بالفعل أوّل مرّة أصلي الفجر وأشعر بهذا الفارق الكبير، جعله الله في موازين حسناتك».

كانت هديل تبتسم في سعادةٍ بالغة لسماعها تلك الكلمات من هشام فالتفت له وقالت:

– كنت أخشى أن تتضايق مني وتحتسبها إزعاجًا لك.

ارتفع حاجبا هشام بنفس التعبير الذي يظهر عليه حين وقوفه في مفارقات عجيبة وقال لها:

– أبدًا، أي شيء منك أحبّه وأقبله، أنت أفضل ملاك على هذه الأرض.

عادت هديل لتغرق في خجلها الذي نادرًا ما تخرج منه حين حديثها مع هشام وقالت له:

– بارك الله فيك، ولأجل هذا سوف أحدّث أبي لكي يمرّ عليك كلّ صلاة فجر لتذهبا معًا للمسجد.

ارتفع صوتُ هشام وهو يصرخ قائلًا: ماذا!!!

قالت له:

– إنها صحبة الفجر، ستحبّ أبي جدًّا عندما تقترب منه لهذه الدرجة.

كادَ هشام يبكي وهو يقول لها: بالطبع، هذا مما لا شكّ فيه.

وتهدّل كتفاه بقوّة، وهو يشعر بأنه قد تورّط في علاقته ومحاولة تقرّبه تلك من هديل.

أخذت هديل تتكلّم كثيرًا عن فضل التقرّب من الله، والعمل الصالح، وما إلى ذلك، وهو شارد بعيدًا يفكّر ويقول... ما هي الأمنية التي أكتبها لهذا الجني لكي ينقذني مما أنا فيه؟!

أرادها بقوّة ولكنّ القرب منها متعب ومرهق جدًّا، هل يقول له انزعْ منها تدينها القوي هذا؟! ولكن كلّ صفاتها الجميلة ونقائها الرائع بسبب هذا التدين، ألا يصلح أن تكون متدينة وتتركه في حاله؟!

اضطرّ هشام لصحبة والدها في صلوات الفجر، وأمّه وأخته تضحكان وتتغامزان وتقولا بأنه لم يتبقّ له إلا شهرٌ ويطلق لحيته ويصير شيخًا، وأن أكبر وأجمل ما حدث في حياته وحياتهم هو ذلك الارتباط بتلك الأسرة، كان حديث والدها معه لا يختلف عن حديثها في أي شيء.. كلّ جملة له لا تخلو من قال الله وقال الرسول.

وفي يوم أعطاه هدية كتيبًا صغيرًا، وقال له عند الانتهاء من قراءته أخبرني لنتناقش فيه، كان هذا آخر ما يمكنه تحمّله، ولأوّل مرّة يعلن رفضه حين قال له:

– معذرةً يا عمّي بسبب عملي الذي يلتهم كلّ وقتي لا أجد بالفعل وقتًا للقراءة.

ابتسم الرجل بكل ودّ وطيبة وقال له:

– لا عليك، كان الله في عونك.

ظنّ هشام بأنّ الأمر سينتهي بمجرّد مرافقته له في الصّلوات التي يكونا فيها معًا بالمنزل، كان يجالس هديل ليحكي لها عن أخلاق والدِها وطيبته وعن الحوار الذي يدور بينهما، وكان هذا أكثرَ شيء يجعلها تنطلق في الحوار معه بسعادة تامّة، فقد كانت تعشق والدها، وتراه هو أكبر وأفضل رجل في الكون.

وجاء يوم الأربعاء، فقالت له هديل:

– هل تقبل والدتك وهبة مشاركتنا في حفل الغد؟!

تنهّد هشام بقوة وقال:

– أشهد أن لا إله إلا الله، أخيرًا يوجد ما يفرح عندكم، بالطّبع ستقبلان، ولكن هل هما المدعوّتان فقط أم برفقتي؟.

ضحكت صحكتَها التي تذيب قلبه، وقالت له:

– أتمنّى مجيئك معهما.

انتشى هشام بكلمتها، فمن النادر الخروجُ منها بكلمة ارتباط به أو شوق له، وقال لها: سآتي قبلهما بالطبع.

فرَدّت قائلة: حسنًا، موعدنا غدًا في الثانية عشرة منتصف الليل.

ارتفع حاجباه هذه المرّة دهشةً وحيرة، وقال لها:

– ما هذا التّوقيت الغريب للحفلات؟!! عمومًا لن نتأخّر؛ اطمئني.

ويوم الخميس، عاد هشام في تمام الواحدة بعد منتصف الليل بقدمين كسيحتين وهو يسبّ ويلعن في سرّه تلك الحفلات التي لم يعمل لها حسابًا من قبل، وأصبحت من الفرائض عليه بسبب ارتباطه بهديل؛ فقد اكتشف– للمرّة الأولى– أن أسرتها اعتادت على قيام الليل بشكلٍ جماعي كلّ يوم خميس، وكانت تلك هي الحفلة التي خدعته ودَعَتْه لها برفقة أسرته!

وحينما سألها متى يمكنه الخروج معها فاجأته بمكافأتها له، وأنّ الخروج سيكون يوم الجمعة، أي صباح الغد.

ولكن يبدو أنّ الأمور والمفاهيم كلّها معكوسة مع هديل تنقلب من المرح والفرح إلى التعب والنصب والمشقة!!

فقد كان الخروج برفقة أسرتها في تمام العاشرة صباحًا إلى أحد المساجد الكبيرة المعروفة بأنّ خطيب الجمعة فيها أحد علماء الدين بالفعل ممّا يعطيهم جرعة علمية وإيمانية جديدة.

واختنق هشام بالجلوس في المسجد كلّ هذه المدّة قبل الصلاة ومدّة الخطبة التي لم يحاول قطّ سماعَ حرف مما يقوله الإمام، وإن كانت بعض العبارات أحيانًا تنتزع منه الاهتمام والفضول.

عاد هشام من صلاة الجمعة وهو يشعر بضجرٍ كبير، وقد أصبحت علاقته تلك بهديل عبئًا كبيرًا عليه بعد مرور أسبوع واحد على خطبته لها، إلى متى سيتحمل التّظاهر أمامها ومجاراتها هي وأسرتها؟! لقد كانت حياته بسيطة، سلسة، طبيعية بدونها، ليست هي الفريدة من نوعها، يوجد آلاف البنات أجمل وأرقّ منها، ولن يرغمنه على كلّ هذا العنت!!

أخذ يفكّر أنه بالفعل في حاجة للمعاونة من هذا الجني لحلّ هذه المشكلة التي تولّدت بسبب علاقته بهديل، أخرج الكتاب من مكنونه وفتح صفحته الأخيرة واحتار ماذا يكتب..

وأخيرًا كتب قائلًا.. «تغيّرت علاقة هشام بهديل إلى النحو الذي يحبّه ويرضاه».

ابتسم بقوّة وإعجاب بذكائه، لقد طلبَ ما يريد دون تحديد الوسيلة أو الطريقة وترك للجني اختيار السبيل لذلك، وأخذ يتفكّر كيف سيتغير الوضع، فهذه الأسرة من الواضح أنها تربّت واعتادت

على ذلك، وكلّ ما مضى في الأسبوع الفائت من الثوابت عندهم، ولكن في الغد كانت المفاجأة التي أذهلته وأظهرت له مدى عبقرية وقوّة وقدرات الجني الذي يعيش بين دفتي كتابه السحري العجيب.

فعند وصوله للعمل، وجد مديرَ عام الشركة المهندس جمال متواجدًا مبكرًا، واستدعاه ليخبره بأنْ يستخرج جواز سفرٍ عاجلًا إن لم يكن لديه لأنه سيكون ضمن الفريق المصاحب له في المعرض الذي ستشارك فيه الشّركة بدبي لمدة أسبوع كامل.

تحمّل هشام المعاناة التي انغمس فيها مع والد هديل لمدّة يومين قبل سفره، وأخيرًا عند الوداع قالت له هديل: أستودعُ الله دينك وأمانتك.

ابتسم هشام وقال لها: الله يخليكِ يا رب.

ابتسمت وقالت: قل لي، أستودعك الله الذي لا تضيعُ ودائعه.

ردّدها هشام خلفها باسمًا، وإذا بها تفاجئه بلفافة وقالت له:

– هذه هديتي لك تذكّرني بها طوال إقامتك هناك، واتّق الله فينا، وعدْ إلينا سالمًا ومعافًى من كلّ سوء، ودعائي لك لن ينقطع أبدًا.

كادَ هشام يطير بجناحين من فرط سعادته، لقد انفكّت عقدة لسانها بأكثر مما يتصوّر، وبالفعل في السّفر لن يجبر على شيء منها أو من أبيها وسيتحرّر من كلّ تلك القيود، وهي التي طلبت منه محادثتها يوميًّا على أحد برامج المحادثة في الإنترنت، وأعطته بريدها الإلكتروني، وكانت المرّة الأولى له التي يفكر فيها في استخدام الإنترنت لأجل هديل، وكم كان الأسبوع هذا رائعًا سعيدًا مبهرًا

بالنسبة له، وضع هديتها التي كانت عبارة عن مصحفٍ صغير على مكتبه أمام ناظريه، وبالفعل كلّما شاهده تذكّر اللحظة الرائعة التي ناله فيها.

ورغمَ بُعده عنها إلّا أنه شعر باقترابه منها أكثر وأكثر....

كلّ يوم يأتيه منها أكثرُ من بريد يحوي مواضيع دينية ونصائح عامّة، يظلّ يقرأها وهو ينتظر الصوت الرائع الذي يدلّ على دخولها وظهورها على الشبكة العنكبوتية.. ويحادثها لمدَدٍ تعدّ بالسّاعات أحيانًا..

شعرَ بأنها كذلك تحرّرت كثيرًا من خجل المواجهة المباشرة معه، فأخذت تحدثه كثيرًا عن أفكارها وخواطرها ومشاعرها تجاه كلّ الأشياء التي تراها في حياتها،

وكذلك بدأت تقصّ عليه مواقف تحدث لها مع صديقاتها...

وأخيرًا، بدأت تبعث له خواطرها الأدبية التي تكتبها وتحتفظ بها، ولم يقرأها أحدٌ قبله.

أخيرًا، شعر هشام بأنها بشر مثله، تشعر وتتفاعل بشكل طبيعي مع الكون، وليست في درجة ومكانة أخرى غير التي يراها هو في حياته، ازداد ارتباطه بها قوة وحبًّا وفهمًا، ولأوّل مرّة بدأ يقصّ عليها بصدق ما يراه ويتفاعل معه ومشاعره نحو كلّ الأحداث التي مرّ بها في حياته، وكيف أن يومَ وفاة أبيه كان اليوم الفاصل في حياته كلّها، فجأة انتقل من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشّيب دفعة واحدة، وأنّ

حياته كان مكتوبًا لها البؤس والشّقاء لولا كتاب الأقدار، وكانت تلك هي الذّلة وفلتة اللّسان التي أودتْ بكلّ شيء....

* * *

.. «وهل تظنّ حقًّا بأنّ موافقتي على الارتباط بك كانت دفعًا من كتاب مجهول أو أساطير غريبة تؤمن بها؟!!»

ما زالت هذه الجُملة من هديل تطنّ في رأس هشام، وما زالت صورتها المتخيلة في ذهنه بحاجبيها المرتفعيْن دهشة واستنكارًا ملتصقة بمخيّلته..

مرّ يومان ولم تظهر هديل مرّة أخرى على برنامج المحادثات منذ أن ردت على جملته الغبية حين قال لها: وهل تريدين إقناعي بأن هناك منطقًا أو عقلًا دفعاك للموافقة على الارتباط بي.

وقالت له: شكرًا يا هشام أرجوك توقف، السلام عليكم.

حاول الاتّصال بها مرارًا دون ردّ، أرسل لها العديد من رسائل الاعتذار على جوالها بلا أثر، انهمرت رسائله الإلكترونية على بريدها يطلب حتى فرصة للاعتذار والتوضيح، ولا أمل..

كاد هشام يجنّ، فجأة انقلب النّعيم الذي كان يرفلُ فيه إلى جحيم حقيقي يتلظّى بحمَمِه، دفْقات السّعادة اليومية التي كان يتجرّعها بحديثه وحواره معها توقفت دفعةً واحدة بلا مقدّمات مما أورثه انهيارًا تامًّا وإحباطًا وحزنًا كبيرين.

وأخيرًا، جاءه رسالة منها، كانت أشبه بقطرة ماءٍ بلّلت شفاه بعد أن أوشك على الهلاك في صحرائه القاحلة أسفل شمس مشاعره الحارقة.

كانت كبقية مراسلاتها المعتادة في السّابق تحمل موضوعًا دينيًّا عن القضاء والقدر، وهل الإنسان مُسير أم مُخير في حياته...

كان مبعث سعادته أنها ما زالت تتعامل معه، وتريد تصويب اعوجاجه كما تراه هي، لم يهتمّ كثيرًا بمحتوى الرسالة بقدر اهتمامه بمعنى وصولها إليه، ولهذا لكي يفتح معها مجالًا جديدًا للحوار، ولكي يدفعها للتفاعل معه مرّة أخرى؛ قام بالبحث على شبكة الإنترنت عن حقيقة كتاب الأقدار هذا..

وكم كانت دهشته عظيمة، فبدلًا من أنْ يصل لنقطة اتّفاق معها، وصل لمعلومة جديدةٍ كانت كفيلةً بزيادة الشّقة والهُوة بينهما....

في دراسةٍ جديدة نشرتها جهةٌ مجهولة، كشفت أنّ هذا الكتاب كان أبرز ظهور له في دولة الأندلس عام ١٠١٠ مع الخليفة الأندلسي حينها- هشام بن الحكم-، وكان بأعلى الموقع تصميمٌ إعلاني كبير باللغة العربية بأن من يريد وصول أي معلومات هامّة وجديدة عن الكتاب على بريده مباشرة فليشترك اشتراكًا رسميًّا بالموقع، وذلك فقط بتسجيل بريده مجانًا عندهم، لم يتردّد هشام في تسجيل بريده..

وعلى الفور، وباندفاع أعمى، ودون وعي منه بسبب حماسته الشديدة، قام بكتابة رسالة لهديل، وأرفقها برابط الدّراسة ليقول لها في النهاية:

.. «بالله عليك، صاحب الكتاب الأول اسمه هشام ابن الحكم، وأنا هشام عبد الحكيم.. ظهر الكتاب معه عام ١٠١٠ وبعدها بألف عام بالتّمام والكمال وبوسيلةٍ غامضة في ليلة مظلمة ممطرة عجيبة، وكأنما هبط من السماء وصل لي، هل هذه مصادفات غبيّة كما ستصفينها؟!!! اشرحي لي فقط كيف يتأتّى هذا وكلّي آذن صاغية».

ونال الردّ منها بالفعل كما أراد، ولكن كان ردًّا مذهلًا ومفاجئًا له، فقد ردّت بجُملة واحدة قائلة:

.. «أقسم بالله أن أقوم بحرقِ هذا الكتاب إن طالته يداي».

كان يومًا واحدًا متبقيًا على عودته لأرض الوطن، ظلّ فيه هشام يتقلب خوفًا وقلقًا على كتابه الذي خشي مرافقته له في سفره كي لا يتمّ اكتشافه كما حدث مع الأمريكي حين دخوله مصر، ترى هل ستحاول هديل البحث في أشيائه بأي وسيلة كأن تخبر هبة بأنها تريد رؤية حجرة هشام في مغيبه، أو تطلبه منها مباشرة بزعم أنه يريد نقله لها كهدية مخطوب لخطيبته؟

ولكن ما طمأنه بأنها بمثاليّتها الشديدة لن تلجأ أبدًا لهذه الأساليب المعوجة والملتوية، ولكامل الأمان اتّصل بهبة خصيصًا ليخبرها بأن تمنع أي مخلوق من دخول حجرته في مغيبه مهْما حدث، ولا تمنح أحدًا قشّة من خصوصياته إلّا بعد طلب ذلك منه مباشرة.

آثرَ هشام أن يصمت، ولا يستثير هديل بأكثر مما حدث حتى لا تقدم على أي خطوةٍ غير متوقّعة قبيل عودته، وعندما دخل شقّته

وبعد التّرحاب العاطفي من أمّه وأخته اندفع مباشرة إلى كنزه النّادر ليطمئن عليه، وما إنْ وجده حتى ارتخت فرائصه راحة واطمئنانًا.

ولكن، لن يظلّ هكذا قلقًا عليه، لذا حمل حمله الثمين وذهب لمحلّ عمله في الشّركة، فقد كان التوقيت ما زال مبكرًا قبل انصراف العمال، وهناك في خازنته الخاصّة، والتي تحوي بعض أشيائة البسيطة دسّ الصندوق بينها، وعاد ليبتسم في اطمئنان تامّ وراحة بالغة، هكذا لن تصلَ له هديل أبدًا بأيّ وسيلة كانت، وذهب أخيرًا إلى شقة هديل...

ليستقبله والداها في ترحابٍ وودّ شديدين، وظلّ الحوار بينهما مطولًا دون أن تظهر هديل، وعندما تساءل عنها، ارتبكت أمّها وتردّدت، ولكن قامت وقالت إنّها ستناديها..

وبعد طول مَغيب، ظهرت وبرفقتها هديل معقودة الحاجبين، نظر هشام نحوها بودّ كبير، فرغم انعقاد حاجبيها إلّا أنها كانت أجمل فتاة في عينيه، كم يعشقها حتى وهي غاضبة، مَن يستطيع مفارقة هذا الملاك الرائع؟!

بعد ردودٍ مقتضبة منها عن تساؤلاته عن صحّتها وأحوالها، قامت والدتها لتعدّ له مشروبًا جديدًا، وابتعد والدها قليلًا زاعمًا بأنه يجب أن يتّصل فورًا بأحد زملائه لمكالمته في أمر هام.

فإذا بها تندفع بوجْهها نحوه، وقد ازداد انعقاد حاجبيها قوّة، وخرج صوتها متهدجًا رغم انخفاضه وهي تقول:

– سأقولها لك صريحة يا هشام، علاقتنا مرهونةٌ بالتخلّص من هذا الكتاب، إمّا أن تعودَ لي به أو أنّك لن تراني بعدها، الخيارُ لك؛ فبعد خروجك من هذا الباب بيدك جعْلُ المسار بلا عودة أو عودة مصحوبة بهذا الكتاب الذي يعبث بعقيدتك.

رغمَ قسوتها وقسوة كلماتها إلّا أنها كانت تزداد جمالًا في عينيه مما جعله يتناسى كلّ تهديداتها، وحاول النجاة قائلًا:

– يا هديل، أيّ عقيدة يعبثُ بها الكتاب؟! فأنا والحمد لله مسلم وموحّد وأصلي، فلنقل بأنّ فيه سحرًا خاصًّا يقوم بهذا.

اعتدلتْ هديل وقالت بخفوت وأسى:

– ابحث عن عقوبة مَن أتى عرّافًا أو استعان بساحر، وستعلم مدى ظلمك لنفسك وبالتبعيّة لي، ولهذا أقول لك حواري معك انتهى الآن.

ثمّ نهضت واقفة وهي تلقي عليه السلام بصوتٍ يكاد يقارب البكاء.

هزّته نبرةُ صوتها الحزينة جدًّا.. مِن الواضح بالفعل أنها تعلّقت به وتحبّه وتخشى فقده، ولكن نظرتها لأمر هذا الكتاب هو الحائلُ والعائق الوحيد أمام علاقتهما.

فرَكَ هشام كفّيه حيرة ماذا يفعل لحلّ هذه المعضلة، الحلّ الوحيد هو الاستعانة بالكتاب للمرّة الأخيرة، هل يكتب كلّ أمنياته دفعة واحدة ثمّ يعطيه لها؟

أم يطلب منه أن يمحو من ذاكرتها حوارَه معها وكشفه لأمر الكتاب أمامها؟

عاد الوالد بعد انتهاء مكالمته ليجد هشام واقفًا يستأذنه في الانصراف، وغادر بالفعل قبل ظهور والدتها بصحبة أكوابها المعبّأة بعصير المانجو الذي يحبّه.

* * *

ظلّ هشام يتلظّى في فراشه طوال الليل، لم يغمضْ له جفن وسط قلقِه وتفكيره الكبيرين، وكلّ ما يدور بذهنه متعلّق بهديل وكتاب الأقدار، وضع الكثير من السّيناريوهات للخروج من المأزق، ولكن كانت كلّها تبوء بالفشل فيتلهف مجيء الغدِ حتى يطلب المساعدة من الجني المسخّر بين يديه داخل الكتاب.

لن يفلح وعده لها بعدم استخدام الكتاب لأنها طلبت التخلص منه بنفسها، ولن يخدعها المجيء بأيّ كتاب قديم موهمًا إيّاها بأنّ هذا هو كتاب الأقدار، فقد شرح لها كلّ ما يتعلق به ولن يستطيع حتى صنع شيء مشابه له.

ارتفع صوت أذان الفجر ممزقًا أستار الليل، ومنتزعًا إيّاه من أفكاره ومشاعره الحائرة والمستعرة، ودون انتظار لوالدها توجّه مباشرة إلى المسجد، فقد كان بالفعل في حاجة لشيء يبثّ الراحة في قلبه ويبعث الطمأنينة بصدره، وكلّما أطال الإمام في السجود أكثرَ

هشامُ من الدّعاء أن يجد مخرجًا ممّا هو فيه وأن يحسن علاقته بهديل.

وعاد لينغمس في نومٍ عميق بجسده المكدود، واستيقظ ليجد نفسَه قد تأخّر كثيرًا عن موعد العمل، اندفع مسرعًا ليجد والدته قد تركت له إفطاره معدًّا ومغطى على المائدة بالصّالة ولا أثر لها ولا لهبة، حتمًا الثانية قد توجّهت لكليتها، وفي الغالب أمّه ذهبت للتسوّق مبكرًا كما اعتادت في مثل هذا اليوم من الأسبوع.

التقم بضعَ لقيمات بسرعه، وخرج صافعًا الباب وراءه في عنف، ولم يحاول حتى اختبار مدى صلاحية المصعد للعمل، واندفع على سلم عمارته ليتعثّر مصطدمًا برجل غريب يراه لأوّل مرّة..

ردّ عليه الرجل بإنجليزية لم يتبيّن من بين جميع كلماتها السّريعة إلّا كلمة آسف،

ولأنّ الرؤية أمام هشام كانت مشوّشة بذهنه المرهق وتعجّله لم يتوقف كثيرًا، وأشار إليه بأنه كذلك يأسف لما حدث، واندفع متعجلًا الوصول إلى عمله، حتى أنه تجاهل نداءات البوّاب المتكررة عليه، والتي حتمًا ستكون لأجل أي شيء تافه لا تستحقّ منه تضييع دقيقة واحدة لأجلها.

استقبلتْه ميّ بصرامتها المعتادة معه، وهي تقول له:

– تتأخّر في أوّل يوم عودة لك، بماذا تسمّي هذا؟!

كان الإرهاق والتوتّر يتملكان هشام لهذا تجنّب مصارعتها بطريقته التي أصبحت مستساغة له معها.. وقال لها: فلتحتسبيها كما تشائين.

شعرتْ ميّ أنه بالفعل يعتمل به الكثير، فلم تجادله واستثمرت الموقف لحسابها حين قالت له:

– لم يشعرْ أحد بتغيّبك، هيّا إلى قسمك بسرعة ولن أبلغ عنك.

شعر هشام بالفعل بتحمّله معروف منها يجب ردّه بأفضل منه أو على أقل تقدير أن يحسن معاملتها بعد ذلك، وذهب لقسمه لينشغل بأعماله التي اعتاد عليها وهو ينتظر بكلّ لهفة أي فترة بينية للوصول إلى كتابه المرتقب.

وأخيرًا، خفّ الضّجيج كثيرًا ولاحتْ له الفرصة التي يتشوّقها منذ مقدمه، اندفع نحو خازنته وأخرج الكتاب، وتركه مفتوحًا على مصراعيه أمامه محتارًا ماذا يكتب..

وأخيرًا، خطّ جملته التي أراحته، فقد كتب يقول:

«تزوّج هشام عبد الحكيم بهديل، وكانت حياتهما منتهى الحبّ والسّعادة».

ابتسمَ معجبًا باختياره، فهذه النهاية هي التي يرجوها مع هديل أيًّا كان السبيل لذلك.. وقام ليدسّ الكتاب في مكنونه الآمن.

عاد ليجلس على مكتبه مفكّرًا في الخطوة المقبلة مع هديل، وأخيرًا أخرج جواله ليكتب لها رسالة قصيرة تحمل كلمةً واحدة كانت هي كلّ القصائد التي قد يتغنى لها بها، فقد كتب كلمة (أحبّك).

وانغمس بعدها في عمله بعد أن دارت الرّحى بالشركة مرّة أخرى، وإذا برنين جوّاله يرتفع بعد نصف الساعة، وبمجرد رؤية

اسم المتّصل على شاشته ارتجف قلبه بشغف، يبدو أنّ هذا الجني يحسن العمل ولا يتأخّر فيه؛ فقد كانت مكالمة من هديل...

ولكن، حينما قام بالردّ ارتفع حاجباه ذهولًا، وذبح قلبه بين ضلوعه، فقد كانت المكالمة هي القنبلة التي تفجّرت بلا توقّع ولا استعداد أو قدرة على مواجهتها.

* * *

جلس مايكل يدرس الأمر بعناية..

التحقيقات تجري على قدمٍ وساق في مصر بعد مصرع ديفيد، وحتمًا سيجد أحدهم خيطًا يربطه بما حدث أو سيحدث.. مجرّد اكتشاف أنّ ديفيد كان معه في جامعة واحدة بداية لا بأس بها، قد يتوصّل لها المصريّون بدارسة ملفّات الأمريكان المتواجدين بمصر، أو قد يفعلها الطاقم الأمني بالسفارة؛ لذا العقلُ يحتّم عليه مغادرةَ هذا البلد الكئيب بسرعة، ولكن بعد سحبِ خيط رفيع معه ينجذب لأي جديد قد يظهر ويدلّه على الكتاب.

وكان هذا الخيطُ هو جوّالَه المصري الذي ترك رقمَه للبواب في الشارع الذي شهدَ مصرع ديفيد، بالبحث والاتّصال بخدمة العملاء علمَ أنّه يمكنه تفعيل تحويل المكالمات الواردة إلى هذا الجوّال إلى رقم جوّاله بالولايات المتحدة حتى بدون تشغيل شريحته الإلكترونية، فقام بضبط إعدادت خطّ اتصاله المصري بأن يقوم بتحويل جميع

المكالمات الواردة إليه مباشرة إلى رقمه الأمريكي، وبعد أن علم بأن تكلفة المكالمة من مصر إلى الولايات المتحدة ستكون على عاتقه هو، قام بشحن رصيده بمبلغ كبير واصطحب شريحته الإلكترونية معه، وأعدّ حقيبته وانطلق مباشرة ليخرج من المطار دون أن يشتبه فيه مخلوق أو يستوقفه أحدهم حتى بسؤال.

وهناك ظلّ مايكل يتابع جميع الأخبار الواردة من مصر بشأن قضية مقتل ديفيد حتى أنه كان يتفاعل مع المواقع والصفحات المصرية على الفيس بوك..

ولكنّ هذا الموقع العجيب الذي بدأ في تسريب حقيقة وأسرار الكتاب شيئًا فشيئًا جذب انتباهه بقوة، كان الموقع باللّغات الإنجليزية والفرنسة والألمانية والإيطالية والروسية في بدايته، وبمجرد ظهور صور الكتاب عقب مقتل ديفيد تمت إضافة اللّغة العربية إليه، وتغيّرت سياسة النشر والحوار فيه لتجذب العرب والمصريين خاصّة إليه سواء باللوحات الإعلانية أو المسابقات المتجددة فيه.

كان يشعر بأنّ هذا الموقع يحوي فخًّا ما حاول الوصول إليه ولم يستطع، الغريب أنّ كلّ المعلومات التي كانت تتسرّب بتدريج وتصاعد مدروس؛ حقيقية بنسبة مائة في المائة!!

اشترك مايكل بالموقع ليتابع الجديدَ فيه، وتفاعل أيضًا مع مناقشات المشتركين به عسى أن يظهر أحدهم يكون هو المالك الحالي للكتاب، ويقع بخطأ منه ويكشف نفسَه.

لمعتْ عيناه وقد أدرك الغرض الحقيقي لهذا الموقع.. يا للذكاء، فالموقع ليس سوى مصيدة للإيقاع بمالك الكتاب، وبالطّبع لن يقوم بكشف هذه الأسرار إلّا مَن يعرف حقيقة الكتاب الفعلية، وبما أنّ الكتاب لا يدري به من الأحياء إلّا هو وإدارة مكتبة الفاتكيان السرية، فحتمًا إدارة وتمويل هذا الموقع تعود لهم.

بمجرّد توصّله لهذا، اشتعل حماسًا، فهو سيستغلّ مصيدتهم لحسابه ولنرى مَن يصل أولًا للصيد الثمين حين وقوعه.

ولكن مرّت الشّهور رتيبة بطيئة كئيبة، لا جديد، ولم ينجذب أي خيط يخصّه سواء جوّاله المصري أو الموقع الفاتيكاني، حتى قضية مقتل ديفيد ومن قبله أستاذه مارك أولدوين قد أغلقتا بتسجيل القاتل أنه مجهول.

شعر مايكل بالحسرة على ضياع كلّ جهده وماله سدى، ولكي يرى جانبًا واحدًا مضيئًا في الأمر يرتكن إليه ليرضي نفسه، قال متمتمًا: كفاني أنّي الوحيد الذي ما زالَ قلبه ينبض بالحياة من بين كلّ مَن تعاملوا مع هذا الكتاب بعد خروجه من تلك المكتبة اللعينة.

وبعد أنْ بدأ في نسيان الكتاب، إذا بالخيطان يعملان معًا؛ فقد نشر الموقع معلوماتٍ جديدةً عن الكتاب وعن مالكه الأشْهر هشام بن الحكم، وفي نفس اليوم اتّصل به البواب ليخبره بأنه قد توصّل إلى اسم ورقم هاتف المطعم الذي وعدَه به فقد كانا مسجّليْن على صندوق الدّراجة البخارية التي جاءت مجددًا لعمارته، ولكن يقودها شابّ آخر غير الأول.

وعلى الفور، وبلا تردد، كان مايكل مسترخيًا في مقعده بالطائرة المتوجهة للقاهرة، وفورَ وصوله ذهب مباشرة لذلك البوّاب ومنحه المقابل الذي وعده به ونال منه اسم ورقم هاتف المطعم، واتّصل به ليستعلم عن عنوانه، وفوْر معرفته توجّه مباشرة له، وهو يعدّ كيفية المواجهة التي لا بدّ وأن تكون حذرة جدًّا.

دخل إلى بهْو المطعم وأخذ يتطلّع إلى طاقم العمل به، هناك الكثير من الموائد الأنيقة المقسّمة لجزئين، قطاع بموائد صغيرة يبدو أنها للأفراد، والآخر بموائد الكبيرة يظهر عليه أنه مخصّص للعائلات كعادة المطاعم المصرية.

كان الشّباب العامل فيه يرتدون جميعًا زيًّا موحدًا، يعملون بكدّ ونشاط وسط زحام المطعم المتوسط، وأمام التلفاز وجد شابًّا منهكًا جالسًا على مقعد وأمامه خوذته، ويتابع البرامج، وبين الفينة والأخرى ينفث دخان سيجارته التي يبدو عليه الاستمتاع بتدْخينها.

تفكّر مايكل أنه ليس من الكياسة أن يذهب إليه مباشرة ليسأله عمّن كان يتعامل مع العمارة المرتبقة.. وأخذ يراقب الجميع ويتفكّر مَن مِن المتواجدين يمكنه التعاون معه دون أن يقوم بتنبيه الهدف بعد انصرافه بأن هناك مَن يسأل عنه؟

اتّجه ببصره نحو الجالسة على ماكينة تخزين النقود، وابتسم، فهي الوحيدة المؤكّد بعدم الاشتباه بها، والتي يمكنه التعامل معها بأسلوبه الخاصّ، توجّه إليها وبعربيته التي لا بأس بها سألها قائلًا:

– منذ متى وأنت تعملين بموقعك هذا؟

وكان الردّ مصْحوبًا بابتسامة دبلوماسية أنها لم تفارق موقعها هذا منذ عام، ابتسم ومدّ يده بورقة نقدية كبيرة وقال لها:

– ما رأيك في هذه المكافأة مقابل بضع معلومات بسيطة؟

لأوّل مرّة يجد ردّ فعل مرتابًا فيه، فلم تمدّ يدها ونظرت له نظرة لمحَ فيها الخوف الفعلي، وهي تقول له: ماذا تريد؟ ومَن أنت؟!!

ولأنّه يعلم مدى كراهية العرب لبلده، وأنّ الكثيرين يعدّونهم أعداءً، فقال محاولًا محْو شكوكها الخطيرة:

– أنا أبحث عن شابّ سرق منّي شيئًا، وتوصّلت لأنه أحد العاملين هنا، وبدلًا من أن أبلّغ سفارتي فتغلق لكم هذا المطعم وتتشرّدون جميعًا بلا راتب، فضلت التوصّل له ومفاوضته ليأخذ ما يريد من نقودٍ مقابل عودة أشيائي الثّمينة.

تنهّدت الفتاة في ارتياح، وأفلحت معها لغة التّهديد المتغطرسة فقالت له:

– أيّ معلومات تريد؟

لمحَ مايكل بعينيه الذّكيتين نظرة الفتاة نحو ورقتِه النقدية، فلم يتردّد في وضعها أمامها وقال لها:

– أحدُ الشّباب الذي يقوم بتوصيل الطّلبات منذ عدّة أشهر لم يعد لمنطقتي، وعاد بدلًا منه شابّ جديد، أريد أن أعلم مَن هو الأوّل.

دسّت الفتاة الورقة النقدية بسرعة، ونادت على الرجل الواقف خلف مايكل لتنهي له ما يريد من الخزينة، وأعقبه اثنان آخران، وبعد أن هدأ الجوّ قالت له:

– ما هي منطقتك؟

ذكر لها العنوان، أخرجتِ الدّفتر المجاور لها، والذي تسجل به الطلبات الخارجية ويتمّ تقفيلها بعد دفع ثمنها، ووجدت أنّ رأفت الشاب الجديد هو مَن قام بتسليم وجبة بالفعل أوّل أمس لهذا العنوان، فأخذت تقلب في الدفتر لتعود لشهور سابقة باحثة عن آخر وجبة تمّ تسليمها لهذا العنوان لتكتشف أن صاحبها هو هشام عبد الحكيم.

فقالت له:

– كلامُك صحيح بالفعل، ولقد تركَ هشام العمل منذ ذلك الحين.

ابتسمَ مايكل بثقة، فقد اقترب كثيرًا جدًّا، ولم يتردّد في منحها ورقة أخرى، لمعت عيناها بقوّة وهي تدسّها برفقة الأخرى، ولم تتردّد في منحه عنوان إقامة هشام عبد الحكيم بعد طلبه منها.

وأخيرًا، وكعادته أخذ يدرس سبلَ المواجهة، ولجهله بكلّ شيء عن هشام وجد أنّ أفضل سبيلٍ هو التمهّل وجمع المعلومات أولًا عنه، ولعلمه بأن أفضل بنك معلومات يمكنُ التّعامل معه هو بوّاب العمارة، آثر الانتظار حتى صباح الغد فهذا هو التوقيت المناسب لأي حوار وصفقات معهم.

بدأ في إعداد أرض المعركة، وأهمها استئجار شقّة في مكان مناسب مستفيدًا من دروس ما حدث في الرّحلة السابقة، وجد المنطقة الهادئة قليلة الكثافة من السكان وأهمّ ما في الأمر أنّ العمارة بلا بواب يرصد كلّ حركاته وسكناته ويكشف كلّ ما قد يقوم به، واستأجر سيارةً حديثة كما فعل في المرّة السابقة.

وفي صباح اليوم التالي، أفاض عليه البوّاب الثرثار، ووصل لكلّ ما يريد بسرعة غير متوقّعة، هشام الشّاب الصغير العائل لأسرته البسيطة، والذي خطب جارته هديل قريبًا جدًّا، وخدمت الصّدفة مايكل بشكل أكثر من رائع؛ فهشام وحده الآن بشقّته بعد خروج أمّه وأخته، شكره مايكل وأجزل له العطاء، وبلا تضييع للوقت صعدَ السّلم متقافزًا بعد اكتشاف أنّ المصعد كتلة صماء لا تتحرك، واصطدم بشابّ متعجّل مثله، ولكن للاتّجاه المعاكس اعتذر له ليلوّح الشاب دون عناية منطلقًا دون فضول لمعرفته أو البحث في سبب مجيئه هنا كما اعتاد من نظرات الجميع في مثل هذه المواقف، فاستكمل سيْرَه ووقف أمام الشقة وهو يسحب نفسًا عميقًا، ويعدّ نفسه لمواجهة النهاية.

رنّ الجرس مرّات عديدة بلا إجابة.. هذا ليس له إلّا أحد معنيين؛ إمّا أنه يغطّ في نوم عميق، أو أنّه ويا للعجب كان ذلك الشابّ الذي اصطدم به.

نظر حوله وأرهف السّمع ليكتشف بأنه وحيد، ولا شيء يدلّ على مجيء أحدهم من الأعلى أو الأسفل، فأخرج مدْيَته المتعدّدة

الاستخدام، والتي كان ينتوي تهديد هشام بها، وببراعة تامّة دسّها مقابل لسان قفل الباب، ولحُسْن حظّه هذه المرّة وبسبب تعجّل هشام لم يكن مغلقًا بالمفتاح فانزلق اللّسان بسهولة فدخل مغلقًا البابَ خلفه بهدوء شديد، وابتسم بثقةٍ كبيرة، فالصمتُ التّام يدلّ على أن البيت خال تمامًا، وسوف يصل لبغيَته دون أي مواجهة أو متاعب مباشرة.

قام بفحصِ الحجرات سريعًا ليكتشفَ ما هي حجرة هشام بسهولة، ولم يدّخر جهدًا في تفتيش كلّ ثقب بها.. ولخيبته لم يجدْ شيئًا، لم يتركْ سنتيمترًا واحدًا إلّا وجسّه أو فحصّه، وتأكّد بأنّ الكتاب ليس في هذه الحجرة.

بدا التوتّر ينتابه، وثقتُه تهتزّ قليلًا، ولكن استمرّ بحثه الحثيث في بقية الشّقة لساعة كاملةٍ دون أن يصلَ لشيء، سبّ ولعنَ هشام والمكانَ كله، لقد أصبحت المواجهة المباشرة مع هشام هي الحلّ الوحيد.

خرج صافعًا الباب خلفه، وهبط ليسأل البواب مجددًا عن هشام، والرّجل يردّ عليه في دهشة قائلًا:

– لقد هبط أثناءَ صعودك مباشرة ذاهبًا إلى عمله، ألم تره؟ لقد ناديته مرارًا، ولكن لم يعرْني اهتمامًا، و...

ملّ مايكل من ثرثرة البواب المبالغ فيها، فقال له بنفاد صبر:

– أخبرني متى سيعود أو أين محلّ عمله.

همّ الرجل أن يخبره، ولكن رأى هديل تنساب أمامه خارجةً برفقة كتبها، وخطواتها السريعة المعتادة، فنادى عليها قائلًا:

– آنسة هديل، الباشا الخواجة بيسأل عن الأستاذ هشام خطيبك.

ارتبكَ كلّ منهما لردّ الفعل غير المرتقب من البوّاب.. هديل توتّرت وتردّدت وارتبكت، ولم تدر ماذا تفعل أو تقول، وهي تنظر نحو مايكل بتساؤل كبير، ومايكل سبّ ولعنَ البوّاب في سرّه، ولأوّل مرّة يرتبك أيضًا محاولًا بسرعة التصرّف بما لا يفسد الأمر معه!! ولكن هديل سبقته ومنحته طوق النجاة متسائلة:

– هل حضرتك من المسئولين في شركته؟

في تنهّد خفيّ مصطنعًا ابتسامة، ردّ مايكل قائلًا:

– نعم، فنحن في مرحلة جمع بعض المعلومات حول مَن ننتوي ترقيتهم قريبًا.

بملامح جامدة وبتفادي النظر المباشر قالت له:

– إذا كنت تريد شيئًا، فوالدي بالأعلى يمكنك الصعود ومحاورته.

ودون أن تنتظر ردّه انطلقت ذاهبة إلى كليتها، وبعد أن علم بسرعة من البواب أنّها في طريقها إلى الجامعة تجاهل نظرة البواب المتسائلة، وانطلق مسرعًا ليستقلّ سيارته متابعًا إيّاها ببطء؛ كي لا تدرك مراقبته لها.

لقد فقد عنصرَ المفاجأة الذي كان يعدّه لهشام مما قد يفسد كلّ شيء، ووجب عليه التصرّف السريع، وداهمته الخطة الارتجالية التي قرّر خوضها..

لينطلق خلف هديل التي لمحها وهي تستقلّ السيارة العامّة التي يسمونها سيرفيس، فظلّ متابعًا كذلك للسيارة التي تستقلّها، والتي أخيرًا توقّفت في محطتها النهائية قبيل أسوار الجامعة التي تدرس بها، ولحسْنِ حظّه كانت تسير وحيدة، فأسرع بسيارته حتى اقترب منها وأوقفها دفعةً واحدة واستلّ مدْيَته الخاصّة، وهبط مسرعًا لينادي على هديل التي توقّفت ونظرت له بدهشة وتساؤلين كبيرين،

كان يقترب منها وهي تتوجّس خيفة وتسأله مرتجفة: ماذا هناك؟!

ودون مقدّمات، وبلا أدنى اعتبار لمن قد يراه جذبها من يدها، ودسّ المدية في جانبها قائلًا بصوتٍ يقطر وحشية وتهديدًا:

– إذا نطقتِ بحرفٍ واحد أو جذبت انتباه أيّ مخلوق ستستقرّ هذه المدية مردية إيّاك، اطمئنّي لن أؤذيك، سنذهب معًا لخطيبك، فلا تدفعينني إلى أيّ ردّ فعل غبي.

كانت هديل ذاهلةً بالفعل، فلم ترَ نفسَها في مثل هذا الموقف بأبشع كوابيسها، ولم تفكّر يومًا أنها قد تتعرّض لمثله، فحياتها الهادئة المثالية لم تهيئها أبدًا لهذا،

لم تدرِ ماذا تفعل، وما الصّواب، حاولت طمأنة نفسها بأنه قد يفي بوعده ولن يؤذيها حتى يصل إلى هشام، ترى هل لو قاومته الآن ونفّذ وعيده وقتلها سيُعدّ ذلك انتحارًا؟

هل لو ذهبت معه تكون قد انْتحرت بشكلٍ آخر، فهي لا تدري ما الذي يخبئه لها..

ولكن لعلْمها بأنّ حوادث الاختطاف للإناث لدى الأجانب تكون لغايات مخالفة تمامًا عن مثيلتها لدينا، قرّرت خوض المجهول فقد يكون فيه أخفّ الضّررين، وإن ظهرَ لها النّقيض لن تتردّد في التضحية بروحها مقابل عدم الرّضوخ لأي شيء بشع.

مرتجفة مرتعبة كطير أصابته رصاصةُ خرطوش مفاجئة، وكادت تودي به، مالت لتحاول استقلالَ السّيارة في مقعدها الخلفي الذي فتح لها مايكل بابه، ولكن ما إن أصبحت رأسُها بمحاذاة سقف الباب العلوي الحادّ، حتى جذبها مايكل بعنف ليصدم رأسَها به لتقع مغشيًّا عليها، ورأسُها لا يكفّ عن النزيف.

دفعها مايكل بسرعة للداخل، وانطلق بالسيارة أسرع من البرق إلى شقته التي أعدّها لمثل هذا، تأكّد بعد الفحص السّريع ببصره أنّ الشارع والنوافذ والشرفات حوله خالية؛ ولهذا سهُلَ عليه حملُ هديل على كتفه، والصعود بها ليقيدها بقوة في أحد المقاعد مكمّمًا فمها، وبدأ في تضميد جرح رأسِها الذي توقّف نزيفه، فهو لا يريد خسارتها بمثل ما حدث مع ديفيد، وأضاع منه كلّ شيء وقتها.

كان جوّالها ينبعث منه رنينٌ متكرّر كلّ خمس دقائق دلالة استقباله لرسالة لم يتمّ مطالعتها، تركها في غيبوبتها ومدّ يده ليتناول جوّالها باحثًا فيه عن اسم هشام والذي حتمًا سيكون ضمن قائمة الاتصال لديها، ولكنْ لدهشته وجد الرسالةَ منه

فتحَها، فوجده يقول لها.. «أحبّك».

ضحك بقوّة وقال.. سنرى أيها العاشق مدى محبّتك لها، وعلى الفور قام بالاتّصال به من جوال هديل.

* * *

بمنتهى المرح ردّ هشام قائلًا:

– أهلًا بمحبوبتي الجميلة، أما زلت غاضبةً منّي؟ أم حان وقتُ النقاش الهادئ بيننا؟

كان ينتظر ردًّا منها يتجنّب مغازلته، ويطلب منه النقاش الجدّي في محاولة إقناعه بما تراه هي صوابًا، ولكنِ ارتعد لدى سماعه صوتًا غريبًا بلكنة أجنبية يقول له:

– أهلًا بك هشام، أخيرًا توصّلت إليك يا رجل!!

عجز عقلُ هشام عن التفكير لوهلة، وانتابه تساؤل حادّ.. مَن هذا الرجل؟!، وكيف يحادثه من جوّال هديل؟!! وخرج ردّه تلقائيًّا يقول بتردّد:

– مَن أنت؟!!

بمنتهى الجديّة أتاه ردّ مايكل قائلًا:

– دعْك ممّن أكون، ولنذهب مباشرة لما هو أهمّ، كتاب الأقدار هل ما زال لديك؟!

رعدةٌ ثانية ودهشة أكبرُ وأعمق من الأولى اكتنفتا هشام، وصمتَ قليلًا، وعقلُه يفور كمرجلٍ عملاق، كيف علمَ هذا الرجل

بأمر كتاب الأقدار، لا يوجد غير هديل على دراية بهذا الكتاب، هل مِن المعقول أن تكون هي التي أبلغت عنه لتتخلّص من الكتاب على حسب رغبتها!! ولهذا يتّصل مِن جوالها!!

بدأتِ الدّماء تصعد لرأسه مباشرة عندما اكتنفه هذا الخاطر، وقال بصرامة:

– مَن أنت؟ وما شأنك بهذا الكتاب؟ وكيف علمت بأنه لدي؟!!

ضحك مايكل وقال:

– قلت لك دعْك من هويّتي، وجميل اعترافك المبطن بأنّ الكتاب ما زال لديك، دون الدخول في الجدالات التي يبدو أنك تهواها، محبوبتك أسيرة مقيّدة لدي الآن، إنْ كنت حقًّا عاشقًا لها كما تدّعي؛ فلا سبيل لإنقاذها سوى تسليم هذا الكتاب.

رعدةٌ كبرى حتمًا سيلحظها مَن ينظر لهشام هذه المرّة، واشتدت قبضته قوّة على جوّاله، واتسعت عيناه ذهولًا بعد الجرعات السّابقة من الدهشة ووصوله للذروة الآن، فصرخ قائلًا:

– ماذا!! كيف تجرّأت أيّها المجرم على اختطافها؟!!

بصرامة ردّ مايكل قائلًا:

– رائع ثورتُك هذه، هيّا أرني نتائجها مباشرة، و...

قاطعه هشام قائلًا:

– أخطأت يا هذا بفعلتك تلك، وسوف ترى عاقبة جرمك هذا.

وأغلقَ الجوّال وهو ينتفض غضبًا وألمًا وخوفًا على هديل، ذلك الملاك الرقيق الجميل الطيب، كيف تقع هي في هذا المأزق ويتمّ اختطافها هكذا؟! ترى هل أصابها ضررٌ أو أذى من أي نوع؟

حاول في مخيلته تصوّر كيفية اختطافها، لم يتحمّل أي مشهد يتراءى له فهزّ رأسه بأسى وقال:

– يبدو أنّك كنتِ على حقّ أيّتها الرقيقة حينما طالبت بالتخلّص من هذا الكتاب مباشرة، وكأنك لديك إحساس مباشر بأن تواجده سيسبب لك كلّ هذا.

وما إن تذكّر الكتاب حتى تناسى تمامًا كلّ ما حوله من عمل وعملاء ينتظرونه، وتوجّه إليه وفتحه، وكتب مباشرة:

.. «تمكّن هشام من إنقاذ هديل دون أن يمسّها أذى ولا ضرر، ودون أن ينال خاطفها المجرم كتاب الأقدار».

رغم خوفه، واهتزاز وارتباك كلّ مشاعره، إلّا أنه شعر باطمئنان كبير عقب ذلك

فقد استعان بمن يثقُ بقدرته على إنقاذها.. وفجأة، أدرك أنه لم يحصل على أيّ معلومات من محدّثه الغريب.. لا مكان ولا موعد التعامل معه، فطلب رقم هديل مباشرة ليردّ عليه مايكل عقب أوّل رنّة ليقول له:

– ترى هل هدأت وأعملت عقلك قليلًا لتدرك ما أنت فيه الآن..

قاطعه هشام للمرة الثانية قائلًا:

– اسمعني يا هذا، أوّل شيء كي لا يتعقّد الأمر بأكثر مما هو، يجب ألّا تشعر السّلطات بما حدث، ولهذا اجعل هديل تتّصل بوالديها وتخبرهما بأنها ستتغيب لدى صديقاتها لأي سبب تراه منطقيًّا لهما.. ثانيًا أغلق جوّالها بعد هذه المحادثة فقد يتمّ تحديد مكانك بتتبّع المكالمات الصّادرة منه إذا كانا قد أدركا تغيبها وإبلاغهما للشّرطة بالفعل عن هذا التغيب، وأخيرًا فلتجعل تعاملنا بعيدًا عنها فلتكنْ هي في عنوان ونتعامل معًا في آخر.

ضحكَ مايكل ضحكة قصيرة وقال له:

– رائع، أحبّ الشخصيات المميزة أمثالك، وماذا بعد؟!

قال له هشام محتفظًا بصرامته:

– أريد أن ألتقيك مباشرة الآن.

جاءه صوتُ مايكل البطيء وهو يقول له:

– لا يا صديقي، لست أنت مَن يضع القواعد هنا، عملًا بنصيحتك سأغلق الآن ولتبعث لي بريدك الإلكتروني في رسالة قصيرة، وسوف أردّ عليك ببريد يحوي التفاصيل.

وقبل أن يردّ هشام كان صفيرُ الجوال يملأ أذنه مخبرًا إيّاه بانتهاء المكالمة، خشي أن يغلق محدّثه جوّالها بالفعل قبل إرساله للرسالة، فكتب بريده بسرعة في رسالة قصيرة، وأرسله له وبمجرّد وصول إعلام بوصولها لجوّال هديل حاول الاتّصال به فوجدَ الرسالة المقيتة بأنّه مغلق أو غير متاح.

فانطلقَ مباشرةً إلى جهاز الحاسوب المخصّص لأعماله، والمتّصل مباشرة بأحد خطوط الإنترنت، ليفتح بريده الذي نسيه منذ أن كان في دبي، ليجد رسالة وحيدة به أتتْه من الموقع الذي اشترك فيه، والخاصّ بأسرار كتاب الأقدار..

لم يلقِ لها بالًا، وظلّ يقوم بإعادة تنشيط الصفحة عساه يجد بريدًا من خاطف هديل ذي اللّكنة الأجنبية، ولكنْ بلا أثر، سبّ نفسه في سرّه، بغروره وكبره منح عدوّه خيوطًا كان هو بحاجة إليها، ولكنّ ثقته بتحقيق ما كتبه في كتاب الأقدار مطلقة.

ناداه بعضُ الزّملاء بالعمل لحاجتهم إليه، ولكنّه لوّح لهم بيده قائلًا:

– افعلوا ما تشاءون، لا وقت لدي لأي عمل الآن.

كان التوتّر والارتباك قد بلغا منه مبلغًا، وعملية إعادة تنشيط الصفحة بلغ معدل تكرارها أقلّ من الثانية، ولكي يشغل نفسه عن الانتظار القاتل هذا قرّر فتح الرّسالة الوحيدة المنتظرة بصندوق الوارد لديه، وكانت رسالة عجيبة في توقيتها ومحتواها....

كانت الرّسالة مخصّصة له بالاسم ويقولون له:

.. «لقد تمّ اختيارُك عشوائيًّا من بين المشتركين بالموقع لإحدى مفاجآتنا، فهل ترغبُ في معرفة أسرار لنْ ولمْ يعرفها أحدٌ قبلك عن كتاب الأقدار، أكبر سرّ يتعلّق بكتاب الأقدار في انتظارك، فقط قمْ بالردّ على الرسالة لتأكيد رغبتك».

شدّت الرسالة هشام بقوّة، حتى أنها انتزعته بالفعل مما كان يعتمل

به، وبلا تردد قام بالردّ عليها لتأتيه مباشرة رسالةٌ أخرى تطلب منه تسجيل رقم جوّاله للتأكد بأنّه بشري، وليس أحد برامج الحاسوب التي ترد على الرسائل بتلقائية، وسوف يأتيه أحدُ أكواد التفعيل برسالة قصيرة على جوّاله تمكّنه من قراءة السر الكبير المتعلّق بالكتاب.

تردّد هشام قليلًا، ماذا يعني هذا؟ ولكن فضوله الكبير نحو هذا السرّ وآلية معرفة السرّ جعلته يشعر بأنّ الأمر جدّيّ بالفعل، فقام بتدوين رقم جوّاله وضغط على أيقونة الإرسال، لتأتيه رسالةٌ قصيرة على جوّاله بعد دقيقتين بها أحد أكواد التفعيل، وفي بريد جديد ورده من الموقع كان هناك رابطٌ يطلب منه الدخول عليه وتسجيل كود التفعيل الوارد إليه بجوّاله، وبلا تردّد دخل وسجّل كود التفعيل لتفتح له صفحة خاصّة جدًّا، ما إنْ طالع محتواها حتى اتّسعت عيناه ذهولًا ورعبًا...

* * *

في العام ١٠١٢، وأثناء خوض سليمان المستعين الحرب لعودة الملك إليه، ولأنّه أوّل مَن استعان بملوك النّصارى في حربه السابقة ولكي يتمّ إبعاد ملك قشتالة عنه هذه المرّة.. تنازل الحاجب بموافقة هشام المؤيّد عن مائتي حصن لهذا الملك، وبالفعل لم يوافق الملك على تأييد سليمان المستعين في حربه الأخيرة، فقد كانت الغنيمة كبيرة ومباشرة، ولكن عينا الملك كانتا تنظران للمستقبل بشكل

أكبر وتخطيط بطيء واستراتيجي، فقد جلس يرقب الأحداث الدامية حينما ذهب سليمان بجيش البربر وهجم على قرطبة ليعيث فيها فسادًا وقتلًا ودمارًا.

ووسطَ هذه الفوضى، كانت الفرصة مناسبة لخطّة خاصّة تناسب نظرته البعيدة للمستقبل.

فقد طلبَ حضور أحد الفرسان الأشدّاء لديه، الذي ما إن وصل بفرسه الأسود ولباسه الأشدّ سوادًا.. حتّى انفرد به الملك ونظر له نظرة قوية ثاقبة وقال: «لقد آنَ لك أن تنطلق الآن مكملًا ما بدأته أيها الفارس».

وببطء، وبصوته الهادئ العميق، وفي ردّ مقتضب ردّ الفارس قائلًا: «أمرك سيدي».

* * *

وسط الدّمار الظّاهر والدخان المنبعث في سماء المدينة في أعمدة متناثرة هنا وهناك

ومِن بين الصّراخ الملتاع الذي ينبعث من كلّ صوبٍ انطلق الفارس الأسود بفرسه الذي يضرب الأرض بحافريه بقوّة، وتتابع لا يمكنك ملاحقته ببصرك.

حتّى وصل إلى قصر الخليفة ليستوقفه الحرس كما في المرّة الأولى ولكن بقسوة وعنفٍ وتحفّز أشدّ من السابقة، وعلى الفور أخبرهما

بمطلبه مقابلة الخليفة لأجل كتاب الأقدار، فلديه سرّ كبير وخاصّ يتعلق به، وجاءهم الردّ سريعًا بالسماح له بالدّخول، وما إنْ بلغ مجلس الخليفة حتى طلب منه الانفراد به لأنّ ما لديه لا يمكن مشاركة أحدٍ فيه سواه، وبعد تردّد طلب الخليفة من جميع من معه الانصراف، وما إنْ خلت القاعة، حتى لاحت بسمة، سريعًا ما اختفت من وجه الفارس، وقال له: «هل تذكر ثمنَ إعطائك الكتاب؟»

قال الخليفة: «ألا أقتلك، ولكن الكتاب مجرّد وريقات لا قيمة لها، وما قلته عنه ليس سوى خزعبلات».

اندفع الفارس مستلًّا سيفه بيمينه، وطوّق رقبة الخليفة بيساره، وواضعًا حدّه على رقبته بقوة وعنف، وقال: «بالطبع أيها المخبول، وهل لو كان الكتاب بمثل ما أخبرتك به سأمنحك إيّاه، الآن صوتٌ واحد منْك وتفقد رقبتك للأبد».

خرج صوت الخليفة متحشرجًا، وهو يوشك على الاختناق قائلًا: «لم كلّ هذا إذن؟!وماذا تريد؟!!»

.. «لقد كان مجيئي في المرّة الأولى لدراسة مداخل ومخارج القصر أثناء وصولي إليك، ولكن حراستك ورفقتها القوية لي منعتني من ذلك».

كان وجهُ الخليفة محتقنًا وهو يقول:

.. «وهل تظنّ بأنّ طريقتك هذه ستسمح لك بنيْل ما فاتك في الأولى؟!»

ابتسم الفارس بسخرية وقال:

.. «كلّ ما أريده منك الآن ليس سوى الخروج معًا من المخرج السرّي الخاصّ بهذه القاعة، والذي أعددته أنتَ للهروب حين الهجوم الأخير عليك في حال حدوثه، يكفيني جدًّا معرفته».

كان صوت الخليفة قد أصبح خافتًا جدًّا وهو يقول:

.. «وهل ستقلتني بعدها؟!»

وبصوت أجشّ قاتم، ردّ الفارس ببطء: «مَن يدري!!».

* * *

في هذا العام ١٠١٢م، كانت نهاية هشام المؤيد التي اختلف المؤرخون حولها، منهم مَن قال بأنّه قتل، ومنهم مَن قال بأنّه هرب لمكان غير معلوم حتى الآن، وآخرون ذكروا بأنه سجن حتى موته.

ذلك الخليفة الصّبي الذي عاش عمرًا لا يملك مِن أمره شيئًا رغم السلطات العظمى التي تحت قدميه، ولأنّ نهايته محيرة فقد كانت خصوصيّاته أيضًا أكثر من محيّرة.

هناك مَن قال بأنّ عزلته في القصر إنما كانت زهدًا وتعبدًا ورغبة في تحصيل العلم، ومَن قال بأنّه بالفعل لم يكن يفقه شيئًا من أمور الدنيا، حتى أنه كان من السهل خداعُه، فقد جاء أحدُهم ذات يوم له بهدية عبارة عن حافرِ حمار، وأخبره بأنه حافر حمار العزير فكافأه وأجزل له العطاء بشكل غير مسبوق.. وآخر أعطاه قطعةً من صخر، وقال له هذه قطعة من الصّخرة المقدسة، ولم يخرج خالي

الوفاض، وآخرون قالوا بأنّه أعجبته واستساغ حياة الدّعة والمتعة في عزلته بعيدًا عن أي مسئوليات يحتّمها عليه منصبه، وأيّا كان فقد رحل وقد ترك دولة عظيمة قد دبّ فيها التمزق والانحسار، وزرع فيها كلّ الأدوات المساعدة للنهاية التي أتت بعد حين وأمدٍ كبير، وكان ذلك في عام ١٤٩٢م.[١]

* * *

ارتختْ قبضة هشام عن فأرة حاسوبه وتهدّل كتفاه وكادت الدموع تفرّ من عينيه وهو يقرأ تفاصيل وأصل كتاب الأقدار، وأنه لم يكن سوى إحدى الوسائل السرّية التي مهّدت انتزاع الأندلس من المسلمين، وذلك بمعاينة ومعرفة المدخل السري لقصر الخليفة في قرطبة.. وأنّه لا توجد أسطورة تتعلق به أو يمكنه تحقيق أي أماني ولا يوجد جني يسكن جنباته.

فجأة، تمكّن الضعف واليأس من نفس ومشاعر هشام، لقد كان يعيش وهمًا كبيرًا، ولكن كيف؟!! لقد تحقّقت كلّ أمانيه التي خطّها على صفحاته بالفعل.

لم يفتْه الإعلان الأخير أسفل الصفحة الإلكترونية بعد انتهاء الموضوع المتعلّق بأصل كتاب الأقدار، والذي يخبر قارئ الرسالة

---

(١) كلّ ما يتعلّق بالفارس الأسود من خيال الكاتب، ولكن ما يتعلّق بنهاية الخليفة هشام المؤيد حقيقة تاريخية مثبتة.

بأنّ هذا الكتاب إنْ كان لديك يمكنك جني ثروة من ورائه بعد معرفة أنه لا يساوي شيئًا بالنسبة لك، ولكنه يمثل قيمة تاريخية كبرى لمكتبة الفاتيكان التي رصدت مكافأة مليون يورو لمن يرشد أو يعيدُ الكتاب لها.. عاد الأمل لصدر هشام مرّة أخرى، ربما تكون هذه خدعةً جديدة من هذه المكتبة، فهي توهمك بأنّ الكتاب لا قيمة له وتغريك بمكافأة لتتنازل عنه بسهولة لهم، فأيّ كتاب هذا الذي مهما بلغت قيمته التاريخيه يجعلهم يضحّون بمليون يورو دفعة واحدة لأجله؟!!، حتمًا هذا الكتاب به ما يجعلهم جديّون في فتح ميزانية بهذا الحجم له.. لهذا وجبَ عليه التأكّد من قدرة الكتاب ولكن بشكل مختلف.

وعلى الفور، أغلق جهازه، وانطلق مباشرة إلى مكتب رئيس مجلس الإدارة المهندس جمال متجاهلًا محاولات منع سكرتيرة مكتبه له لأنّه في اجتماع هام، ودخل ليجده بصحبة رجلين متأنقين يرتدي كلّ منهما منظارًا يضفي عليهما الأهمية والوقار، واللّذين نظرا له متسائلين، واستقبله المهندس هشام بدهشة وهو يعيدُ سمّاعة هاتفه إلى موضعها عقب مكالمته الهامّة ليقول له:

– ماذا هناك يا هشام؟!.

قال هشام مباشرة دون مقدمات:

– لماذا قبلت تعْييني هنا رغم افتقادي لكلّ المؤهّلات التي قد تدفعك لذلك؟

ابتسم المهندس جمال، ونظر للرجلين وهو يعتذرُ لهما على هذه المقاطعة بنظرته تلك، وقال له:

– لقد تأخّر سؤالك كثيرًا يا هشام، أما زلت تذكر هذا؟ وما الذي حدث ليجعلك تقتحم المكتب متعجلًا الإجابة هكذا؟!!

قال له هشام برجاء، وصوته يتقاطر ألمًا:

– أرجوك، أجبني؛ فالأمرُ سيفرق معي في كلّ شيء.

تضاعفتْ دهشة المهندس جمال، ولكن لأنّه في موقف لا وقت فيه للنقاش أو الجدال الطويل قال له:

– حسنًا، اهدأ قليلًا وسأخبرك، لقد كانت لديك ميْزة رائعة لم أجدها بأحدٍ إلّا نادرًا، وهي ثقتك المفرطة في نفسك وقدراتك.. وهذه الثقة جعلتني أوقن بأنك شخصٌ ناجح، ويمكنك التعلّم والتفوّق سريعًا بأيّ قسم أضعك به.. وكان أنسب قسمٍ لك هو المبيعات، وقد نجحتْ بالفعل فيما وكلتك به، وكذلك كنتَ شخصية مناسبة لأنْ يطلق عليك فيما بعد ابن الشركة؛ لأنّك ستتربّى وتتعلم وتكبر فيها، ولن يمكنك الذّهاب لغيرها.

تمعّر وجه هشام بالألم في ردّ فعل تعجّب المهندس هشام له بقوة، وانطلق خارجًا دون كلمةٍ واحدة، كان يتمنى ردًّا يخبره بأنه فجأة، وبلا تفكير ولا وعي منه وجد نفسه موافقًا عليه، وأنه ندم على ذلك فيما بعد أشدّ الندم، ولكن كان الردّ مخيبًا لكلّ آماله.

كان يسيرُ بطرقات الشّركة وهو غير واعٍ بما يحدث حوله، كان

من حوله ينطلقون بخطواتهم السّريعة، وبعضهم يصطدم بكتفه أثناء سيرهم وهو غير عابئ ولا منْتبه لهم، حتى وجد نفسه يقف أمام ميّ التي نظرت لمشهده البائس بتعاطف وقالت له:

– ماذا بك يا هشام! هل أنت متعَب؟

نظر هشام نحوها بلا تركيز، وهو يتذكّر مقابلته الأولى ومعاملته معها، واستعاد في ذهنِه كلّ أحداث اليوم حتى تذكّر عفروتو، فلمعت عيناه وقال لها وقد انتابه نشاط عجيب:

– لا شيء، شكرًا يا ميّ.

وانطلق مسرعًا وخارجًا من الشركة، وهي تضربُ كفًا بالآخر، تعجبًا من ردود فعله الغريبة وتصرفاته العجيبة في هذا اليوم.

وهناك بناصية الشارع، وعلى المقعد البارز والمعتاد له بذلك المقهى، كان عفروتو جالسًا ينفث سحاب الدخان الكثيف من نرجيلته الخاصة، وهو يتحدّث بصوته العالي ويلوّح بكفّه الغليظه أثناء حديثه.. اندفع هشام نحوه وقال له مباشرة:

– أستحلفك بالله أن تخبرني بالحقيقة يا عفروتو، وسوف أنفّذ لك كلّ ما تأمر به.

سعلَ عفروتو على إثر توقّف الدخان برئته من أثر مفاجأته بجملة هشام السابقة

وقال له ملوّحًا بكفّه:

– ماذا تريد هذه المرّة، ألم نفترق منذ أشهر؟!!

كان هشام يرجوه بصوت بائس قائلًا:

– اصدقني القول أرجوك، ردّك سيفرق معي في كلّ شيء، لماذا خضعت مباشرة لي، ووافقت على تركي في حالي بلا مناقشة في المرّة السابقة؟!

ظلّ عفروتو صامتًا وجلًا لثوان، ثمّ قال له:

– لأنّك مرشد مفْضوح، فقد كان ظاهرًا عليك بقوّة أنك قد تعاونت مع الشرطة وتسعى للإيقاع بي.

فرّت دمعة حقيقية هذه المرّة من عيني هشام، وأدار ظهره لعفروتو منطلقًا وقد غابت عنه كلّ المشاهد التي تتراءى لعينيه.

الكتابُ بالفعل ليس سوى خدعة كبيرة ووهْمٍ واسع عاشَ فيه بكلّ كيانه، والتهمه حتّى النخاع، لم يكنْ يهمّه الآن سوى أمر هديل، الكائن الملائكي الرائع والنقي، الحقيقة الوحيدة الجميلة في حياته، والمكسب الأكبر الذي جناه بسبب هذا الكتاب، كان يتمنى رؤيتها الآن لمعرفة سبب موافقتها عليه، وإن كان قد تيقّن بالفعل من عدم ارتباط كتاب الأقدار بتلك الموافقة، يذكر استنكارها الشّديد حينما سألته قائلة: وهل تظنّ حقًّا أنّ موافقتي على الارتباط بك كانت دفعًا من كتاب مجهول أو أساطير غريبة تؤمن بها؟!!، وتذكّر صوتها الرقيق المغلف بالألم وهي تتركه منصرفة في آخر لقاء لها في شقتها.

كان مِن الرائع، ويبعث على السعادة، أنها مرتبطة به وتريده بلا أساطير ولا دفعًا من قوى خارقة، كم يشتاق إليها تلك الحبيبة الرائعة، أقسم الآن حين عودتها ألّا يضايقها يومًا أو يغضبها أو

يرفض لها مطلبًا، ولكن كيف سيصل لها أو ينقذها؟!!

فقد اكتشف ضعفه وبساطته، وذهبت عنه الهالة الكاذبة التي كانت تحيط به

بغبائه، منح عدوّه نقاط قوة كثيرة كان من الممكن النّيل منه بسببها.. لم يعدْ أمامه إلّا الإذعان له، ومنحه ذلك الكتاب الغبي، والذي لا يسوي في عينيه الآن قيمة خردلة!! المهمّ أن تعود هديل سالمة معافاة من كلّ ضرّ.

عاد هشام مسرعًا إلى الشركة ليجد ميّ في مقابلته تنظر له بحدّة، وتهمّ بأن تحدثه

فقاطعها قبل أن تنطق قائلًا:

– أعتذر إليك يا ميّ عن كلّ سوء بدَرَ نحوك منّي، وأرجوك لا تحاسبيني على أي شيء الآن، ويمكنك احتساب هذا اليوم غيابًا لي، ودعيني وحدي.

وتركَها وانطلق وهي ما زالت تكتنفها حيرة من هذا اليوم العجيب فيي كلّ شيء يتعلّق بهشام منذ صباحه، وأمام حاسوبه جلس هشام يترقّب رسالة مايكل التي سيخبرُه فيها بكلّ التفاصيل المطلوبة لعملية التّبادل، وغابت الرسالة كثيرًا، وأخيرًا بعد ساعات وحين موعد انصراف الجميع..

أتتْه تحمل كلّ التعليمات الواجب عليه اتّباعها طاعةً لمايكل.

* * *

بعد نصف السّاعة تمامًا، كان هشام يقف أمام الصالة رقم ثلاثة بمطار القاهرة الدّولي الجديد، كان الزّحام في هذا التوقيت كثيفًا، نظر نحو صالة السفر ليجد الأفواجَ الخارجة وهناك مَن ينتظرهم أقاربهم يتقافزون ويصيحون فرحًا منادين عليهم لافتين أنظارهم لمكان تواجدهم.. والخارجين يدفعون عربات الحقائب أمامَهم وهُم يلوّحون بأيديهم سعادة وفرحًا بالعودة ورؤية ذويهم عبر الزجاج الشّفاف لتلك الصالة.

ونظرَ في اتجاهٍ آخر ليجد فتاةً تبكي بحُرقة وهي تمدّ يدها مصافحة شابًّا وسيمًا وجهُه يتلوّى من الألم وهو يشدّ على يدها بقوّة، ثمّ التفت إلى سيدة كبيرة تجاورها ليحتضنها، ويهمس لها بكلمات.. حتمًا لن تخرج عن طلب الدّعاء له في غربته المتّجه لها.

ووسطَ تلك المشاعر والانفعالات المتنوّعة والمتباينة، كان هشام يعتمل بمشاعرَ مختلفة تمامًا من الخوف والرّعب والتّساؤل والترقّب.

بحث بعينيه عن السّلم المقابل لتلك الصّالة عبر الطريق الأسفلتي الذاهب والآتي، ووجده بالفعل كما وصفه له مايكل، سلّم هابط لأسفل لا تكاد تراه بعينيك إلّا إذا دقّقت في المكان بحثًا عنه، وكما أوصاه هبط ثلاثَ درجات ثمّ توقّف وأعطى ظهره للأعلى، ولا ينسى تحذير مايكل بألّا يلتفت أبدًا أو يحاول رؤية وجهِه حين نيْله للكتاب.

مرّت سبع دقائق قبل أن يطرق سمعه صوتُ مايكل بلكنته الخاصّة وهو يقول له:

– أحسنت صنعًا بطاعتك هذه، سآخذ الكتاب الآن وبعد تحرّك الطائرة وقبل إقلاعها من فوق رصيف طرقات المطار سأتّصل بك لأخبرك بالعنوان الذي به محبوبتك أيّها العاشق، ولكن حذار من الالتفات لمحاولة رؤيتي.

ومدّ يده ليأخذ الكتاب الذي تركه هشام ينسابُ من أسفل ساعده الأيمن الذي كان يضمّ الكتاب به إلى جانبه.. ولم يحاول هشام الالتفات أو المخاطرة بمحاولة رؤية مايكل.

جلس بعدها على درجات ذلك السلّم، وظهره كما هو للأعلى، وكل انفعالات ومشاعر القلق والتوتر تموج وتكاد تذهب بفؤاده، لم يلقِ بالًا بمن كاد يصطدم به أثناء هبوطه على السلم وتوبيخه له بسبب جلسته العجيبة تلك.. وبعد ثلاث أرباع السّاعة ارتفع رنين جوّاله ليرفع معدل دقّات قلبه للذروة.. وليستمع إلى صوت مايكل مخبرًا إيّاه بعنوان تواجد هديل، الذي ما إن سمعه هشام حتى انطلق مندفعًا وخارجًا ليوقف أوّل سيارة أجرة تقابله ويخبر السائق بالعنوان.

صعد إلى الشقة ليجدها مغلقة، والمفتاح أسفل القطعة الجلدية المخصص لتنظيف الأحذية أمام بابها كما أخبره، فتحَ ليجدها أمامه باكية ذاهلة مرتجفة يحوطها الرّعب من انتظار المجهول.

وبهمهمة أسفل الكمامة التي تكمّم فمها، والتي بلا ترجمة كان من الواضح أنها تهتف مستنجدة باسمه، ولم يجبْها هشام سوى بدموعه الصّامتة المنسابة أيضًا على خدّيه لعدم تحمّله مشهدها هذا.

كانت زقزقةُ العصافير وهديرُ المياه يقتحمان سمع هديل التي فتحت عينيْها لترى ضوءَ الشّمس وقد اقتحم غرفتها نقيًّا رائعًا يبثّ دفئًا لا مثيل له في أوصالها، تثاءبت بقوة وهي تطالع تلك الزخرفة الجميلة التي تقابل بصرَها في سقف الغرفة.

كانت زخرفة خاصّة تتمايز في ألوانها بين الأبيض والأزرق والأخضر، حاولت تتبع التّصميم لتجده معقدًا بشكل يجعلها تتساءل عن مدى قوّة وبراعة من صبر عليه حتى أتمّه بيديه.

اعتدلتْ جالسة على سريرها لتطالع بقية تفاصيل غرفتها المزدانة بأدقّ وأروع التّصاميم المعمارية اليدوية.. همّت أن تنهض من سريرها ولكن اقتحم عليها المشهدَ هشام حاملًا مائدة صغيرة بها إفطارٌ خاصّ وهو يميل أمامها مادًّا يمناه بتلك المائدة، وواضعًا يسراه خلف ظهره، ويقول لها بصوت يقطر فرحة وسعادة:

– معذرة أميرتي، فقد تأخّرت عليك حتى أنه قد مرّ عليك أكثر من دقيقة منذ استيقاظك قبل مجيئي بإفطارك هذا.

اتّسعت ابتسامة هديل لتضيء وجهَها بأكثر مما هو، حتى أنّ هشام تساءل بينه وبين نفسه عن مدى صدق أنها هي بوجْهها الوضّاء الذي يشع نورًا يضيء الكون كله بدلًا من الشمس المشرقة الآن.

وقالت له بصوت ناعس رقيق:

– شكرًا يا هشام، جزاك الله عني كلّ خير.

وضع هشام المائدة أمامها وهو يقول لها بالفصحي:

– جزانا وإيّاك يا أميرة قرطبة المبجّلة، فمِن دواعي سروري أن وكلني الخليفة لأكون خادمك الأمين والمطيع.

انطلقتْ ضحكتها القصيرة والرقيقة لتذيب قلبه بأكثر مما هو فيه، وقالت:

– أخشى أن يكون هذا حلمًا، وأستيقظ منه بعد حين.

مدّ هشام يده ليتناول كفّها ويقودها إلى النافذة الكبيرة لترى المشهد الرائع والسّاحر أمامها.... الخضرة تمتدّ إلى ما بعد الأفق، والسهول والوديان والجبال على مرمى بصرها مشكّلةً أمامها مشهدًا لم تحلم بجماله من قبل، وأسفل نافذتها مباشرة كانت البحيرة التّاريخية والمميزة لقصر قرطبة التي تمتدّ بشكل مستطيل وطويل يحوطها الخضرة والزهور البنفسجية ونوافير المياه تتدفّق على جانبيها في مشهدٍ لا يمكنك انتزاع بصرك عنه، ولكنّها ارتدّت للخلف فور أن لمحت السّائحين وهُم يتلقطون لأنفسهم الصّور التذكارية حول تلك البحيرة، فضحك هشام وقال لها:

– لا تخافي، الزّجاج لا يكشفك، فهو ذو اتجاه واحد، يمكنك الرؤية منه دون أن يراك مَن بالخارج.

اطمئنّ قلبها وعادت لتطالع السّحر الرباني الذي يحيط بها من كلّ صوب، ولكن اعتلى وجهها أمارات الأسى والحسرة وهي تقول:

– هل تصدّق أنّ من فعل ذلك هُم أجدادنا يا هشام، ولكن تنازع الملك وطمع الدّنيا والانشغال بها هو الذي ضيّع منّا كلّ ذلك.

قبّل هشام كتفَها، وهو يقول لها مازحًا:

– أقبّل يديك ليس هذا أبدًا وقت دروس التاريخ ومذابحه التي ستعكّر علينا صفو الأسبوع الأوّل من زواجنا.

نظرت نحوه بودّ شديد لتتطلع إلى ملامح وجهه الطفولية التي تحبّها.. وقالت له: – كما تشاء.

وضعَ هشام يدَه فوق كتفها وهي تطيل النظر في المشهد الممتدّ أمامها، وعاد بذاكرته إلى شهور عدّة ليتذكر ما الذي أوصله هنا.

فبعدَ عودته من لقاء عفروتو ووسط كلّ مشاعر اليأس والإحباط، ارتفع صوت أذان العصر ليهزّه كأنما أوّل مرّة يستمع إليه، قام ليصلي العصر كأنّما يصليه للمرّة الأولى في حياته، كان يستشعر كلّ كلمة وحرفٍ في الآيات القليلة التي يقرأها من سورة الناس..

ربّ الناس، ملك الناس، إله الناس،

هناك ربّ ملكٌ إله جبار يملك ناصية الجميع..

سالتْ دموعه وانفصل تمامًا عن الدنيا بخشوعه وخضوعه الحقيقين وتمكنهما التام منه.

انتهى من صلاته التي شعر برحيقها وجمالها وروْعتها، وقد اكتشف اكتشافًا ذهبيًّا لا مثيلَ له، كيف كان يغفل عن ذلك من قبل!!!

حركاته السريعة التي كان يؤدّيها بلا روح ولهفته للانتهاء من الواجب الثقيل كانت تحرمُه من كلّ هذا..

راحةٌ نفسية كبيرة تمكّنت من كلّ خلاياه..

عاد له هدوءه واستقراره..

وأصبح ذهنُه صافيًا بشكل غير مسبوق..

ولهذا أخذ الأمر معه منحى جديدًا، ذهب اليأس وزال الإحباط، وعاد إليه الشعور بالقوّة والسيطرة والثقة، بعد أن كان ينتظر البريدَ القادم من مايكل بترقّب وخوف وخشية.. لم يعدْ يلقِ له بالًا أو أهمية.

وذهب ذهنُه لأمر آخر كان بعيدًا عن مجال بصره واهتمامه بسبب مشاعره التي كانت تكبّله..

أصحابُ الكتاب الذين يسعون خلفه بقوّة، ويفتحون له ميزانية ضخمة للوصول إليه، سيستعين بهم في أمره هذا.. ولكنْ كيف سيكون ذلك وهمًا في أقصى الأرض الآن!!

لم يشغلْ نفسه بالكيفية، وأرسل لهم بريدًا بأنّ الكتاب لديه ومستعد لتسليمه ولكنْ بشروط..

على الفور ارتفع رنينُ جوّاله من رقم مصري، ليردّ عليه متسائلًا عمّن يطلبه، وبلغةٍ عربية فصيحة قال له محدّثه بأنّه تابع لمكتبة الفاتيكان وأنه ضمن فريق مخصّص ومقيم في مصر في انتظار هذه المكالمة منذ أمد، والتي هي بشأن كتاب الأقدار الذي يزعم أنه معه، ومتسائلًا عن شروط تسليمه.

أخبره هشام بحقيقة الوضع الذي هو فيه، وأنّ ما يهمه الآن ثلاثة أشياء، أوّلها إنقاذ مخطوبته.. وافقهُ الرّجل على متابعة شأنه، والانتظار حتى مجيء بريد مايكل وترتيب الأمر على حسب ما يأتي به. وعندما جاءته التّعليمات من مايكل بتسليمه الكتاب بشكلٍ لا

يرى وجهه فيه؛ وافقه الرجلُ وقال له: نفّذ ما أخبرك به، ولا تشغلْ بالك بما سيحدث بعدها، فنحن نريدُ الإيقاع به ومعاقبته عقوبة تمنع أيّ لصّ قد يفكّر في سرقتنا بعد ذلك بمثل ما فعل، ومن المناسب جدًّا لنا الإيقاع به في الولايات المتحدة، وليس هنا بمصر.

وهناك في مطار بوسطن، كان يقف رجلان قويّان معهما صورة واضحة تظهر وجهَ مايكل تمّ التقاطها له في مطار القاهرة بعد أخذه الكتاب من هشام، وما إن طالعا وجهَه ضمن الفوج الذي وصل على متْن الطائرة القادمة من القاهرة، حتى تحفزا وترقّبا خروجه ووصوله إلى موضعيْهما، وتقدّما نحوه والتصقا به فجأة ودسّ أحدهما إبرة خاصّة في وريده العنقي ببراعة، وقبل أن يفه بحرفٍ سقط على كتف أحدهما بسرعة فاقدًا للوعي.. وعلى الفور دسّاه وحقيبتَه داخل السيارة التي تنتظرهما وأسرعا به إلى مصيره المجهول.

وقد أوفت إدارة المكتبة بوعدها لهشام وحقّقت له مطلبيه الآخران بعد إنقاذ هديل؛ تمّ منحه المليون يورو المكافأة التي أعلنوا عنها، وتمّ تهيئة وتجهيز إحدى غرف قصر قرطبة على غير المعتاد؛ حيث أنه قصر أثري مخصّص للزيارت السّياحية فقط ليقضي به الأسبوع الأوّل من زواجه برفقة عروسه الرقيق، هديل.

تذكّر ذلك وتعجّب.. ما هي القيمة التاريخية التي تجعل إدارة مكتبة الفاتيكان تنفق وتفعلُ كلّ ما فعلته معه لأجل كتابِ الأقدار هذا، وانطلقَ سؤاله على لسانه قائلًا لهديل:

– هل تصدّقين حقًّا بأنّ كتاب الأقدار هذا لا يحوي سرًّا كبيرًا لا نعلمه؟!

عقدتْ هديل حاجبيها وقالت له:

– هل ستعود لذلك الأمر مجدّدًا؟!

ضحكَ هشام وقال لها:

– حسنًا، جاء موعد مصارحتي بأسباب موافقتك على شخصي الضعيف.

أضاءَ وجهها مرّة أخرى ببسمتها التي يعشقها، وقالت له:

– ما لا تعلمه أيّها الرجل أنّكم تعيشون دور الصياد، ولا تشعرون أبدًا بأنكم أنتم الفريسة.

ارتفع حاجباه تساؤلًا، وهو يقول لها:

– ماذا يعني ذلك؟!

جلستْ على طرف سريرها، وتنهّدت وقالت مسترجعة ذكريات تحبّها:

– كلّ محاولات تتبّعك لي كنت أدركها جيدًا. (وضحكت ضحكة قصيرة، واستطردت قائلة) في الحقيقة كلّها كانت منتهى السّذاجة فأنت قديم جدًّا، ولكن كنت أحبّ سذاجتك هذه، فهي تدلّ على نقائك وعدم تلوثك بثقافة جيلنا الذي لم يعدْ له سقف أو حدود في أفعاله.. مشهدٌ واحد هزّني بقوّة وشغل بالي بالفعل، حينما وجدتك بزيّ عامل توصيل الطّلبات للمنازل، وأنت تناديني أمام خزينة المطعم، علمت وقتها كم أنتَ بسيط ورائع، لم تتكبّر أو تخفي بساطة مظهرك وعملك الذي تسعي فيه لنيل رزقِك الحلال، حتّى أني عدت يومها وأخبرت

والدي وسألته عن سبل مساعدتِك في إيجاد عمل مناسب، ووعدني بذلك، ولكنّك سبقتنا بعملك الجديد.. ظهرَ معدنك الطيب أكثر عندما دخلت البيوت من أبوابها، ولم تحاول أي طريق آخر معوج معي، وقتها.. قلت بأنّ أصلك ومعدنك الرّائعين هذين كافيان لأن أجاهد وأطلب رضا الله فيك بأنْ أدفعك للالتزام وطاعة الله، فأنت بيئة جيدة سريعة الاستجابة بإذن الله لسعيي هذا، ولكنك كنت صعبًا ومرهقًا، وشعرت بالفشل التّام عندما أخبرتني عن هذا الكتاب، وأنك تظنّه المسيّر الفعلي لكلّ أقدارك وتيقّنت بأن كلّ ما أفعل سيذهب سدًى بسبب اعتقادك هذا، وكان كلّ جهدي بالفعل في النهاية للتخلص من هذا الكتاب لأجل ذلك.. ولم أكن أعلم بأنّ الله- عزّ وجلّ- يهدي من يشاء حين يشاء بقدرته وفضله، وها قد ظهرَ صلاحُك عقب الأزمة التي تعرضنا لها، وصرت بأفضل مما أحلم به.

ضمّها هشام إليه بقوة، وابتسم وقال لها:

- أيًّا كانت حقيقة هذا الكتاب، ورغم أنّ أمنيتي الأخيرة فيه قد تحققت بالفعل، يكفي أنه سيظلّ عبر التاريخ يحمل اسمي واسمك بين دفّتيه، فقد خُطّا فيه أكثر من مرّة.

مالتْ هديل برأسها على كتفه، ولم تنطق، وتركت مشاعر السعادة تنطلق بلا حدودٍ لتعبق الجوّ التاريخي الذي يعيشان فيه.

تمّت بحمد الله

د. أحمد السعيد مراد

١٢- ٦- ٢٠١٢

للتواصل مع الكاتب

-https://www.facebook.com/ahmedmorad2000

- ahmedmorad2000@hotmail.com